حلول قرآنية لمشكلات إنسانية

الحب بين الوهم والحقيقة

بحث مستقى من كليات رسائل النور
للإمام الجليل سعيد النورسي

إعداد
خديجة النبراوي

SÖZLER PUBLICATIONS

شركة سوزلر للنشر

اهداءات ٢٠٠٢
شركة سوزلر للنشر
القاهرة

حلول قرآنية لمشكلات إنسانية

الحب بين الوهم والحقيقة

بحث مستقى من كليات رسائل النور
للإمام الجليل سعيد النورسي

إعداد

خديجة النبراوي

الناشــــر
شركة سوزلر للنشر
١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر القاهرة ت : ٢٦٣٦٦٨٤

الطبعة الأولى : ١٩٩٨
رقم الإيداع:١٦٦٦٧ / ٩٨
الترقيم الدولي :O - ١٥ - ٥٣٢٣ - ٩٧٧



ومن الناس من يتخذ من دون
الله أندادا يحبونهم كحب
الله والذين آمنوا أشد حبا لله

صدق الله العظيم

(البقرة: ١٦٥)

من هو الإمام النورسى؟

سؤال يطرحه الكثيرون، بعد قراءة أى مكتوب يصدر عن رسائل النور، التى تبهرهم بأفكارها العلوية، وأنوارها المعنوية.

وأنا أقول لكل من يتشوق إلى تنسم عبير ذلك الإمام الجليل:

- إنه الإمام العارف بالله، العالم الورع التقى، بديع الزمان وكل زمان "سعيد النورسى".
- ولد عام ١٨٧٣ ، بشرق الأناضول بتركيا.. وانتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠.. بعد حياة حافلة بالجهاد المادى والمعنوى، فى أسمى صوره وأبلغ معانيه.
- لا يمكن بسهولة حصر النعم والمواهب التى أنعم الله بها عليه: فهو عالم متمكن من حدود الشريعة إلى أبعد مدى، ومتبحر فى علوم الحقيقة، إلى ما شاء الله له الإبحار فى آفاق عالية، ومستوعب من العلوم الدنيوية، ما لا يجاريه فيه عالم من علماء عصره.. وله السبق بفضل من الله – فى كل المزايا التى يمكن أن يحظى بها العلماء.
- كذلك لا يمكن بسهولة إطلاق صفة واحدة تدل عليه: فهو: عالم – عارف بالله – مجاهد – تقى – ورع – زاهد – متواضع – أديب – شاعر – مفكر – حكيم – إنسان بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معان.
- أما عن دوره فحدث ولا حرج:

– فهو المفكر العظيم صاحب حركة إحياء الفكر الدينى فى تركيا، حيث وهب حياته للحفاظ على الهوية الإسلامية فى تلك البلاد، التى

تعرضت لأقصى ما تعرضت لــه دولـة إسلامية، مـن غـزوات الفكـر العلمانى.

- وهو المجاهد الذى حمل السيف والقلم، دفاعا عن الحق ضـد البـاطل، وأبرز فى كل الميادين، قدرة فائقة وبسالة نادرة.
- ويكفيه شرفا وفخرا أن نقول: إنه صاحب رسـائل النـور، فهـى تعتـبر بحق زاد الدعوى الإسلامية لأجيال المستقبل، التى تحتاج إلى البرهان العقلى، والحكمة المستقاة من حقائق القرآن، وتتفق مع روح العصر.

♦ إن الإمام النورسى لا يمكن تعريفه فى سطور، فهو يحتـاج إلـى مجلـدات ضخمة.. ولكن نقول لكل مـن يريـد معرفـة مـن هـو ذلـك الإمـام الجليـل بحق: انظـروا إلـى تلاميذه، ومـدى وفـائهم وإخلاصهم لشـيخهم، ومـدى النور الذى يشع من وجوهم الوضاءة بالإيمان، علاوة على ما فى قلوبهـم من فيوضـات ربانيـة وإلهامـات نورانيـة.. بذلـك تعرفـون عظمـة الأسـتاذ وجدارته، فى ترجمة معانى القـرآن إلـى رجـال عظـام.. حتـى لـو مـرت السنون والأعوام الطوال، على رحيله إلى دار البقاء.

فاللهم انفعنا بعلمه، ولا تحرمنـا أجره. واجمعنـا يـا رب بـه مـع الأحبـة "محمد وصحبه" إنك على كل شئ قدير وبالإجابة جدير.

وصلـى اللـه علـى معلـم البشـرية الأكـبر الحبيـب المصطفــى ﷺ، إمــام المتقين وقدوة الداعين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

الحب.. هو تلك الكلمة السحرية الغامضة التـى تستثير كوامن الإنسـان، وتطلق العنـان للخيـال.. ولا يوجد أحد لا يعرفهـا أو ينطقهـا، كـل حسـب مفهومه لها، ابتداء من الطفولة وحتى الشيخوخة.

وكمـا أن الحب يسعد فهو كذلـك يشـقى، وإذا حللنـا جميـع المشـاكل الإنسانية، سنجد أن مصدرها هما حرفان اثنان: "**حاء وباء**" إمـا بـالإفراط أو التفريط، أو الانحراف عـن منابعـه الرقراقـة الصـافيـة العذبـة، وبالتـالى عـدم الفهم لدوافعه وأهدافه وأبعاده.. وقد تكلم فى الحب الكثيرون والكثيرون، كل ينهل من مشربه، ويحلق فى آفاقه، وينظر إليه بوجهة نظره الخاصة، حسـب قدراته العقلية والروحية والنفسية.. ولاشك أن كثرة من تكلموا عنه، تتفق مع مراتب الحب التى ترتقى من أدنى درجاتها، حتى تبلـغ عنـان السمـاء، حيـث يقول البعض عن تلك المنزلة السامية:

وأحسن حالة الإنسان صدق　　　وأكمل وصفه حاء وباء

ونظراً لأن الحب عاطفة إنسانية قوية، فـإن الإسـلام قد تناولهـا بالعنايـة والرعاية، حتى تتحول تلك البـذرة الكامنـة فـى أعمـاق النفس البشـرية، إلـى شجرة مثمرة، أصلها ثابت وفرعها فى السـماء، تؤتـى أكلها كل حين بـإذن ربها، بدلاً من أن تتحـول تلـك البـذرة إلـى شـجرة واهيـة، ليس لهـا جـذور تحميها من أعاصير رياح الهوى، فتقتلها بسهولة، وتلقـى بهـا مـع صـاحبهـا، فى أودية سحيقة من العذاب والهلاك المعنوى.

وقد قام الإمام النورسى -ﷺ- بعرض مفهوم الحب بما يتفق مع نظرة الإسلام له.. بل يمكن القول: إن رسائل النور هى أنغام الحب الإلهى، التى فاض بها قلب إمامنا الجليل، فى أروع صوره وأجلى معانيه.. حيث أحب الله ورسوله بكل ذرة فى كيانه، فانطلق ذلك الحب كلمات عذبة ندية، وأنغاما شجية، تشدو بعظمة ذلك الحب، التى يتحدث بها الكون بأسره، من الذرة إلى المجرة.. لأن هذا الكون شملته رحمة الله الواسعة، التى هى أجل مظاهر الحب الإلهى للمخلوقات قاطبة.

وها نحن نعرض غيضا من فيض، وقبسا من أنوار لامعة، تبين كيف يكون الحب حباً حقيقياً سامياً، يجلب السعادة والهناء، وليس وهما خادعاً، يجلب التعاسة والشقاء.. ومن يريد الاغتراف من المزيد، من هذا البحر العميق، فعليه الرجوع إلى رسائل النور، حيث تنير السبيل حقاً، وتجعل القلوب تفيض حباً، وتشيع شفقة ووداً، وتتفاعل مع الكون كله، الذى انعكست عليه رحمة الحى القيوم، فصار يتلألأ بأنوار الوجود.. وبذلك يسبح الجميع فى موكب النور.

فالحب الحقيقى: ينبع من محبة الله، ثم ينساب إلى المخلوقات، حباً وطاعة لمنهج الله ورسوله..

أما الحب الوهمى: فهو الحب النابع من الهوى والشهوات، ولذلك فهو حب واهى، ينقطع سريعاً، بانقطاع الأهواء النفسية والمصالح المادية.. فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انفصل وانقطع.

ولكـى يحقق البحـث مـراده ومقصوده: فقد تناولنـاه فـى أربعـة مبـاحث رئيسية، كل مبحث يحتوى على نقاط فرعية.. وتلك المباحث هى:

المبحث الأول: جولة فى ميادين الحب داخل النفس البشرية.

المبحث الثانى: الكون كله يشعر بلذة الحب.

المبحث الثالث: لماذا ينهزم العقل والقلب أمام دواعى الهوى؟

المبحث الرابع: كيف يرتقى الإنسان بالحب الإلهى إلى أعلى عليين؟

وليس معنى هذا أننا قد استكملنا موضوع "الحب بين الوهم والحقيقة" من جميع أبعاده.. فهذه بحار عميقة تحتاج إلى غواصين ماهرين.. ولكننا حاولنـا قدر جهدنا، أن نعرض بعض الأصداف التـى التقطها إمام جليل، مـن أئمـة الدين المخلصين، هو الإمام بديع الزمان سعيد النورسى.. داعين أولـى العـزم أن يواصلوا الجهد لتوفية الموضوع حقه.. لأننا فى أشد الحاجة إلى استجاشة مشـاعر الحـب الحقيقـى، فـى قلـوب المؤمنيـن نحـو رب العـالمين، لأن هـذا سيحميهم من الانحراف مع تيار الهوى، الذى يعمى عن رؤية الحق.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

المبحث الأول

جولة في ميادين الحب داخل النفس البشرية

الحب احتياج إنساني شديد

يبين الإمام النورسى أن الحب من أشد الاحتياجات الإنسانية: حيث كل إنسان يحتاج إلى وجود قلب مقابلاً لقلبه، لمداولة المحبة، ومبادلة العشق والمؤانسة، والتشارك فى اللذة، بل والتعاون فى أمثال الحيرة والتفكر.. حيث الإنسان إذا رأى ما يتحير فيه، أو تفكر فى أمر عجيب، فإنه يستدعى -ولو ذهنيا- من يعينه فى تحمل الحيرة[1].

فالحب هو متمم الامتزاج الروحى، ومكمل الاستيناس القلبى. وهو من ألطف أنواع الرحمة الإلهية، وسر الفعالية المحيرة للألباب، الجارية فى الكائنات، حيث كل شخص يؤدى وظيفة فطرية، أو يقوم بمهمة اجتماعية، فإنه يشعر بمحبة وشوق ولذة، أثناء أدائه لتلك الوظيفة، مما يدفعه إلى القيام بها بحرارة وشوق، وهذا ما يسمى بـ "**الداعى والمقتضى**".. ليس الإنسان فقط هو الذى يشعر بذلك، بل إن الفعالية الموجودة فى المخلوقات قاطبة نابعة من لذة وشهية، ومن شوق أيضاً[2].

ونظراً لأن اللذة إنما تكون لذة حقيقية، إن لم ينغصها الزوال.. ونظراً لأن الإنسان مخلوق للأبد، لذلك فإن اللذة الحقيقية لا يمكن أن تحصل له، إلا فى حب الأمور الأبدية: كالمعرفة الإلهية، والمحبة والكمال والعلم، وأمثالها.. وهذا ما يسعى إليه الإسلام، لتحقيق السعادة القصوى للإنسان..

---

(١) إشارات الإعجاز ص ١٩٥.

(٢) الكلمات ص ٧٦٨.

فكثير من اللذائذ المؤقتة، إذا زالت أثمرت آلاما مستمرة، حتى أن مجموع أشعار العشاق المجازيين، إنما هى أنين ونياح من هذا الألم. ونجد أن ديوان كل عاشق غير حقيقى، إنما هو بكاء وعويل من هذا الألم، الناشئ من تصور زوال المحبوب.

أما مع الإيمان: فإن كثيراً من الآلام إذا انقضت، أولدت لذات مستمرة كلما تذكرها الشخص، وهو قد نجا منها، حيث يقول "الحمد لله" اعترافا بالنعمة المعنوية، التى أنعم الله بها عليه(١).

وهنا تظهر عظمة الإسلام، الذى يحقق أشد احتياجات الإنسان، مع الحفاظ على السعادة والدوام.

الحب الحقيقى والحب والصورى

يبين الإمام النورسى كيف يمكن الارتقاء بعاطفة الحب لدى الإنسان، فيقول: إن المحبة سبب وجود هذه الكائنات، والرابطة لأجزائها، وأنها نور الأكوان وحياتها(٢).

ولما كان الإنسان أجمع ثمرة من ثمرات الكون، فقد أُدرجت فى قلبه -الذى هو نواة تلك الثمرة- محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها.. لذا فإن هذه المحبة غير المتناهية، يجب أن تكون رشيدة، وإلا سببت للإنسان مصائب كبيرة: لأن عشق محبوبات دنيوية، شبيهة بالأصنام، لحد العبادة بباطن القلب (الذى هو مرآة الصمد) يعتبر مصيبة منغصة لهؤلاء العشاق.

(١) إشارات الإعجاز ص ١٩٦.

(٢) الكلمات ص ٤١٠.

نعم، فالإنسان يحب نفسه أولاً، ثم يحب أقاربه، ثم أمته، ثم الأحياء من المخلوقات، ثم الكائنات، ثم الدنيا.. فهو على علاقة مع كل دائرة من هذه الدوائر، ويمكن أن يتلذذ بلذائذها، ويتألم بآلامها. بينما لا يقر قرار لشيء فى هذا العالم الصاخب، الذى يموج بالهرج والمرج، وتعصف فيه العواصف المدمرة، لذا نرى قلب هذا الإنسان المسكين يجرح دائماً.

فالأشياء التى يتشبث بها، هى التى تجرحه بالذهاب عنه، بل قد تقطع يده، لذا لا ينجو الإنسان الذى يوجه عاطفة الحب المودعة فيه إلى الخلق، من قلق دائم، وربما يلقى نفسه نتيجة ذلك فى أحضان الغفلة والسكر.. فهذه الأنواع من المحبة غير المتناهية، إنما هى مخصوصة لصاحب كمال وجمال لا نهاية لهما.. ومتى ما سلمها الإنسان إلى صاحبها الحقيقى، فيمكنه أن يحب الأشياء جميعها باسمه دون قلق، ومن حيث أنها مراياه[١].

فيحب الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة: لأنها نعمة إلهية لا يشوبها ألم، ولذة لطيفة فى الشكر بعينه.

ويحب نفسه: بحيث يشفق عليها ويجتهد فى تربيتها وتزكيتها، ويمنعها عن الأهواء الرذيلة، فلا تقيده بأهوائها، بل يسوقها هو، إلى حيث الهدى، دون الهوى.

ويحب زوجته: لأنها رفيقة حياته، وهى هبة من الرحمة الإلهية. ولو كان الحب مبنيا على جمال الصورة، الذى تهواه النفس، فإنه سرعان ما يخبو ويذبل، وتفسد الحياة الزوجية أيضاً.

ويحب الوالد والوالدة: لأن هذا الحب عبادة يثاب عليها، مادامت فى

(١) الكلمات ص ٤١١ ، ٤١٢.

سبيل الله. حيث يكتسب لذة روحية خالصة، وراحة قلبية تامة، لدى القيام بخدمتهما وتقبيل أيديهما، وتبجيلهما بإخلاص، وخاصة عندما يبلغان الكبر.. أما لو كان ذلك الحب لأجل كسب حطام الدنيا، ونابعاً من هوى النفس، فإنه يولد ألماً روحياً قاتماً، ينبعث من شعور سافل وإحساس وضيع، وهو النفور من ذينك الموقرين واستثقالهما، وقد بلغا الكبر، ثم الأدهى من ذلك، تمنى موتهما وترقب زوالهما.

ويحب أولاده: حب من استودعهم الله إياه أمانة، ليقوم بتربيتهم ورعايتهم، فهو حب مكلل بالسعادة والبهجة، وهو نعمة إلهية فى الوقت نفسه، فإذا شعر بذلك فلا ينتابه الحزن على مصابهم، ولا يصرخ متحسراً على وفاتهم. حيث يؤمن بأن الموت بحق هو سعادة لهم، والصبر على فقدهم أجر له، ورحمة من الله تتنزل عليه. فينجو من ألم الفراق والهلع على المصاب، الذى ينتج عن حبهم بدافع الأنانية والهوى.

أما محبته للأصدقاء والأقرباء: فلأنها لوجه الله تعالى، فلا يحول فراقهم ولا موتهم عن دوام الصحبة معهم، ودوام أخوتهم ومحبتهم ومؤانستهم.. إذ تدوم تلك الرابطة الروحية، والحب المعنوى الخالص. ولكن إن لم يكن ذلك الحب لأجله تعالى، فإن لذة لقاء يوم واحد، يورث آلام الفراق لمائة يوم[1].

أما محبته للأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين: فإن عالم البرزخ الذى هو عالم مظلم موحش، فى نظر أرباب الضلالة والغفلة، يراه منازل من نور، تنورت بأولئك المنورين. وعندها لا يستوحش من اللحاق بهم، ولا يجفل من عالم البرزخ، بل يشتاق إليه، دون أن يعكر ذلك تمتعه بالحياة

(١) الكلمات ص ٧٧١ ، ٧٧٢.

الدنيا. ولكن لو كان حبهم شبيها بحب أرباب المدنية لمشاهير الإنسانية، فإن مجرد التفكير فى أولئك الأولياء الكاملين، وترمم عظامهم، يزيد المرء ألماً على آلام الحياة، ويزيده مرارة وحسرة وقلق.

وبالنسبة لمحبته للأشياء الجميلة والأمور الطيبة: فإن هذه المحبة فى حد ذاتها تفكر ذو لذة ومتعة، حيث أنها تفتح السبيل أمام أذواق حب الجمال والشوق إلى الحسن، لتتطلع إلى مراتب أذواق أسمى وأرفع.. لأنها تفتح آفاقاً أمام القلب، ليحول نظره من آثار الصانع الجليل، إلى جمال أفعاله البديعة، ومنها إلى جمال أسمائه الحسنى، ومنها إلى جمال صفاته الجليلة، ومنها إلى جمال ذاته المقدسة.. وبذلك تصبح تلك المحبة عبادة لذيذة، وتفكر ممتع فى نفس الوقت.

أما محبته للشباب: فلأنه قد أحب عهد شبابه، لكونه نعمة من الله، فهو سيصرفه فى عبادته تعالى، ولا يقتله غرقاً فى السفه، وتمادياً فى الغى. وبذلك ينجو من آفات النفس الأمارة بالسوء، وسيئات طيش الشباب.

وبالنسبة لحبه للدنيا: فلأنه حب لله، ولأجله سبحانه، فإن موجوداتها المثيرة للرعب والدهشة، تصبح له أصدقاء مؤنسين.. ولأنه يتوجه إليها بالحب، من حيث كونها مزرعة الآخرة، فإنه يستطيع أن يجنى من كل شىء فيها، ما يمكن أن يكون ثمرة من ثمار الآخرة.. فمصائبها إذن لا تخيفه، وزوالها وفناؤها لا يضايقه.. وهكذا يقضى مدة إقامته فيها، وهو ضيف مكرم.. ولكن لو كان حبه لها كحب أرباب الغفلة، فإنه سيغرق نفسه، ويفنى بحب ساحق، خانق، زائل، لا طائل وراءه ولا نفع(١).

---

(١) الكلمات ص ٧٧٢ ، ٧٧٣.

محبة الله أسمى أنواع الحب

يبين الإمام النورسى لذة الحب الإلهى، التى لا تعلوها لذة فيقول: اعلم يقيناً أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية هى: "الإيمان بالله".. واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية هو: "معرفة الله" التى فى ذلك الإيمان.. واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن، وأحلى نعمة هى "محبة الله" النابعة من تلك المعرفة.. وأن أصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه، هو تلك "اللذة الروحية" المترشحة من تلك المحبة.

أجل! إن جميع أنواع السعادة الحقة، والسرور الخالص، والنعمة التى ما بعدها نعمة، واللذة التى لا تفوقها لذة، إنما هى فى **"معرفة الله"** وفى **"محبة الله"**.. فلا سعادة ولا مسرة، ولا نعمة حقاً بدونها.

فكل من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور محبته، سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهى، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفذ، وسينالها إما فعلاً وواقعاً، أو استعداداً وقابلية.. بينما الذى لا يعرف خالقه حق المعرفة، ولا يكن له ما يليق من حب وود، يصاب بشقاء مادى ومعنوى دائمين، ويظل يعانى من الآلام والأوهام، ما لا يحصر.

نعم! إن هذا الإنسان البائس، الذى يتلوى ألماً من فقده مولاه وحاميه ويضطرب من تفاهة حياته وعدم جدواها، وهو عاجز وضعيف بين جموع البشرية المنكودة.. ماذا يغنيه عما يعانيه، ولو كان سلطان الدنيا كلها؟! فما أشد بؤس هذا الإنسان المضطرب، فى دوامة حياة فانية زائلة، وبين جموع سائبة من البشر، إن لم يجد مولاه الحق، ولم يعرف مالكه وربه حق المعرفة! ولكن لو وجد ربه، وعرف مولاه ومالكه، لالتجأ إلى كنف رحمته

الواسعة، واستند إلى جلال قدرته المطلقة.. ولتحولت له الدنيا الموحشة روضة مؤنسة، وسوق تجارة مربحة(١).

احتياج الإنسان إلى محبة الله من أشد الاحتياجات

إن احتياج الإنسان إلى محبة الله لا متناهى.. ورسائل النور كلها تعتبر ترجمة فعلية، لشدة احتياج الإنسان إلى ذلك الحب السامى. ولكن ننتقى منها ما يلى:

- نظراً لأن ماهية الإنسان عالية، وفطرته جامعة، فهو محتاج بألف حاجة وحاجة، إلى ألف اسم واسم، من الأسماء الحسنى، وإلى كثير جداً من مراتب كل اسم.. فالحاجة المضاعفة هى الشوق، والشوق المضاعف هو المحبة، والمحبة المضاعفة كذلك هى العشق.. فحسب تكمل روح الإنسان، تتكشف مراتب المحبة وفق مراتب الأسماء. ومحبة جميع الأسماء أيضاً، تتحول إلى محبة ذاته الجليلة سبحانه. إذ أن تلك الأسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا(٢).
- المحبة الإلهية: تحقق الوجود الحقيقى للإنسان، بانسياق لطائفة جميعاً إلى ما خلقت من أجله.. لأنها تحرك قلب الإنسان الذى يعتبر مركزاً لجسمه، ولولباً لحركته، وتوجهه إلى الله، فيندفع بذلك كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور، فتتحقق حقيقة الإنسان(٣).

---

(١) المكتوبات ص ٢٨٩.

(٢) المكتوبات ص ٧٦٨.

(٣) المكتوبات ص ٢٨٩.

- إن محبة الله تحقق: خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة، التى تكتنفه فى حياته الدنيا، وانسلاله من الغربة الأليمة، التى يحسها إزاء الكون، والشعور بالأنس المعنوى، فى الحياة الدنيا والبرزخ والآخرة، والشعور بالحقائق اللطيفة فى التكاليف الشرعية، والوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل(١).
- إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد، فالعقدة الحياتية فى الوجدان -وهى معرفة الله- تنشر الحياة إلى آمال الإنسان، وميوله المتشعبة فى مواهبه، واستعداداته غير المحدودة. كل بما يلائمه، فتقطر فيها اللذة والنشوة، وتزيدها قيمة وترفعها شأناً.. **وهذه هى نقطة الاستمداد.**
- كما أن معرفة الله نقطة استناد وحيدة للإنسان، تجاه تقلبات الحياة ودواماتها، وتزاحم المصائب وتوالى النكبات.. إذ لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم، الذى أمره كله حكمة ونظام، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وركن إليها، وإلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً، فسينتابه الفزع والرعب، وينهار من هول ما يحيط به من بلايا. وسيشعر بحالات أليمة تذكر بعذاب جهنم. وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة، مما ينافى روح النظام المتقن القائم فى الكون كله. **وهذه هى نقطة الاستناد..** نعم لا ملجأ إلا بمعرفة الله ومحبته(٢).

---

(١) المكتوبات ص ٥٩١ ، ٥٩٣.

(٢) صيقل الإسلام ص ١٢٢.

من ضلالات الإنسان حبه لنفسه

إن الإنسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته، محب لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته فى المقدمة. ويضحى بكل شىء من أجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزه شخصه، ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً، ويدافع عنها دفاعاً قوياً، بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه، من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه، إلى نفسه.. فيصيبه وصف الآية الكريمة ﴿**من اتخذ إلهه هواه**﴾ (الفرقان:٤٣) فيعجب بنفسه ويعتد بها[١].

وهذا الذى يحب نفسه **الأمارة بالسوء** -غير المزكاة- ويعجب بها، هو فى الحقيقة لا يحب أحداً غيرها.. وحتى لو أبدى للغير حباً، فهو لا يحبه من صميم قلبه، بل ربما يحبه لمنافعه، ولما يتوقع منه من متاع. فهو فى محاولة دائمة لتحبيب نفسه للآخرين، وفى سعى متواصل لإثارة إعجابهم به، يصرف كل قصور عن نفسه، فلا يحملها أى نقص كان، بل يدافع دفاع المحامى المخلص لإبراء ساحتها، ويمدحها بمبالغات، بل بأكاذيب، لينزهها عن كل عيب أو قصور، حتى يقربها إلى التقديس. وهذا الإنسان يضيع الإخلاص من قلبه، ويكون مغلوباً على أمره، أمام شهواته وهواه ومشاعره، فضلاً عن انصراف الناس عنه لاستثقالهم له.. بل قد تبرر له أهواؤه الضالة، أموراً يرتكبها لأجل متعة لا تدوم ساعة، تقضى به أن يلقى فى السجن لسنة كاملة.. وقد يقاسى عشر سنوات من الجزاء العادل، لأجل تسكين روح الثأر لديه، وشهوة الغرور التى لا تستغرق دقيقة واحدة.. فيكون

(١) المكتوبات ص ٥٩٥ ، الكلمات ص ٥٥٩.

مثله كمثل الطفل الأبلـه الذى لا يقدر قيمـة المصحف الشريف الذى يتلوه ويدرسه، فيبيعه بقطعة حلوى رخيصة. إذ يصرف حسناته التى هى أغلى من الماس ويبدلها بما يشبه فى تفاهتها قطع الزجاج، تلك هى حسياته وهواه وغروره. فيخسر خسارة جسيمة، فيما كان ينبغى له أن يربح فيه ربحاً عظيماً(١).

وينصح الإمام النورسى هذا الإنسان الضال فيقول له:

إن محبتك الشديدة لنفسك، والمغروزة فيك، ما هى إلا محبة ذاتية متوجهة إلى ذات الله الجليلة سبحانه، إلا أنك أسأت استعمال تلك المحبة، فوجهتها إلى ذاتك. فمزق إذن ما فيك من "أنا" واظهر "هو". فإن جميع أنواع محبتك المتفرقة على الكائنات، إنما هى محبة ممنوحة لك، تجاه أسمائه الحسنى، وصفاته الجليلة.. بيد أنك أسأت استعمالها، لذلك ستنال ما قدمت يداك. لأن جزاء محبة غير مشروعة وفى غير محلها، مصيبة لا رحمة فيها.

إن محبوبا أزليا أعد -باسمه الرحمن الرحيم -مسكناً جامعاً لجميع رغباتك المادية، وهو الجنة المزينة بالحور العين.. وهيأ بسائر أسمائه الحسنى، آلاءه العميمة، لإشباع رغبات روحك وقلبك وسرك وعقلك، وبقية لطائفك.. بل له سبحانه فى كل اسم من أسمائه الحسنى خزائن معنوية، لا تنفذ من الإحسان والإكرام.. فلا شك أن ذرة من محبة ذلك المحبوب الأزلى، تكفى بديلاً عن الكائنات كلها.. ولا يمكن أن تكون الكائنات برمتها، بديلاً عن تجلى جزئى، من تجليات محبته سبحانه(٢).

---

(١) اللمعات ص ٤٤٧.

(٢) الكلمات ص ٤١٣.

فاعلم أيها الإنسان: إذا كان نفسك أحب إليك، لأنها أقرب إليك من كل شيء، **فلابد أن يكون ربك أحب إليكّ منك**، إذ هو أقرب إليك من نفسك.. ألا ترى أن ما لا يصل اختيارك وخيالك إليه من أسرار ما رُكب فيك، هو حاضر مشاهد لربك[1]؟!

فلا تبذل ما تملكه من قابلية غير محدودة للمحبة إلى نفسك، التى هى أمارة بالسوء، وهى قبيحة ناقصة، وشريرة مضرة لك. فلا تتخذها محبوبتك ومعشوقتك، ولا تجعل هواها معبودك، بل اجعل محبوبك من هو أهل لمحبة غير متناهية.. ذلكم القادر على الإحسان إليك إحساناً لا نهاية له، والقادر على إسعادك سعادة لا منتهى لها. بل يسعدك كذلك بما يجزل من إحساناته على جميع من ترتبط معهم بعلاقات، فهو الذى له الكمال المطلق، والجمال المقدس، والمنزه عن كل نقص وقصور وزوال وفناء.. فجماله لا حدود له، وجميع أسمائه حسنى وجميلة[2].

من مخاطر البعد عن المحبة
انفكاك الروابط المادية والمعنوية للبشرية

إن جوهر الحياة الاجتماعية الإنسانية –ولاسيما للأمة الإسلامية– هو: وجود محبة خالصة بين الأقرباء، ووجود رابطة وثيقة بين القبائل والطوائف، ووجود أخوة معنوية وتعاونية نحو إخوته المؤمنين، ضمن القومية الإسلامية، ووجود علاقة فداء نحو قومه وجنسه، ووجود التزام قوى

(١) المثنوى العربى النورى ص ٤١٦.
(٢) الكلمات ص ٧٦١ ، ٧٦٢.

ورابطة قوية، لا تهتز مع الحقائق القرآنية التى تنقذ حياته الأبدية، ومع ناشرى هذه الحقائق، وأمثالها من الروابط التى تحقق أسس الحياة الاجتماعية[١].

ولكن غرور الإنسان وحبه لنفسه، قد يقودانه أحياناً إلى عداء إخوانه المؤمنين ظلما، ومن دون شعور منه، فيظن المرء نفسه محقاً. مع أن مثل هذه العداوة تعد استخفافاً بالوشائج والأسباب، التى تربط المؤمنين بعضهم ببعض: كالإيمان والإسلام والإنسانية.. وهى أشبه ما تكون بحماقة من يرجح أسباباً تافهة للعداوة كالحصيات، على أسباب بجسامة الجبال الراسيات للود والمحبة، التى تصبح سلاسل نورانية متينة، وحصون معنوية منيعة.

لقد أظهرت الحربان العالميتان: مدى ما فى روح العداوة من ظلم فظيع ودمار مريع. وتبين أن لا فائدة منها البتة، وعليه فلا ينبغى أن تجلب سيئات أعدائنا (بشرط عدم التجاوز) عداوتنا، فحسبهم العذاب الإلهى ونار جهنم[٢].. فإن ما يسببه التحايز والعناد والحسد، من نفاق وشقاق فى أوساط المؤمنين، وما يوغر صدورهم من حقد وغل وعداء، مرفوض أصلا.. ترفضه الحكمة والحقيقة، ويرفضه الإسلام، الذى يمثل روح الإنسانية الكبرى.. فضلاً عن أن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر: الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة.

إن العداء والمحبة نقيضان، فهما كالنور والظلام لا يجتمعان معاً بمعناهما الحقيقى أبداً: فإذا ما اجتمعت دواعى المحبة، وترجحت أسبابها، فأرست أسسها فى القلب، استحالت العداوة إلى عداء صورى، بل انقلبت إلى

---

(١) الشعاعات ص ٤٦٥.

(٢) صيقل الإسلام ص ٥٠٩.

صورة العطف والإشفاق، إذ المؤمن يحب أخاه، وعليه أن يوده.. فأيما تصرف مشين يصدر من أخيه، يحمله هذا على الإشفاق عليه، وعلى الجد فى محاولة إصلاحه باللين والرفق، دون اللجوء إلى القوة والتحكم.. لأنه ورد فى الحديث الشريف **﴿لا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال. يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا. وخيرهما الذى يبدأ بالسلام﴾** (اخرجه البخارى ٢٣٣٩ ومسلم ٢٥٦٠ عن ابو ايوب الانصارى ﷺ).

أما إذا تغلبت أسباب العداوة والبغضاء، وتمكنت فى القلب، فإن المحبة تنقلب عندئذ إلى محبة شكلية، تلبس لبوس التصنع والتملق[١]..

وهذا يخل بالروابط المادية والمعنوية للبشرية، ويطلق النفوس الحائرة العصبية الذاهلة من عقالها، لتتيه ضائعة شاردة.. وتتصارع تلك النفوس الضالة، فى مستنقع الأهواء والرذيلة، بعدما نقضت العرى النورانية، التى تربط أفراد المجتمع الإنسانى تحت مشاعر المحبة السامية[٢].

لذلك فمن أشد أنواع الظلم أن يحمل المؤمن عداء وحقداً لأخيه، لأن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعى حتما توحيد قلوب المؤمنين بها، على قلب واحد.. ووحدة العقيدة هذه، تقتضى وحدة المجتمع، لما يربطه من روابط التوحيد والوفاق والمحبة والأخوة.. وتلك الروابط لها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة.. فمن أظلم من يعرض عنها، ويفضل عليها أسبابا واهية، أوهى من بيت العنكبوت، تلك تولد الشقاق والنفاق والحقد والعداء، مما يقوض أركان المجتمعات، ويجعلها تعيش فى ظلمات[٣].

---

(١) المكتوبات ص ٣٣٩ ، ٣٤٠.

(٢) الشعاعات ص ١٢٢.

(٣) المكتوبات ص ٣٤٠ ، ٣٤١.

فليكن أقدس هدف لأسمى جمعية فى العالم، وهى جمعية الجنود المؤمنين، هو الاتحاد والأخوة والطاعة والمحبة، لإعلاء كلمة الله، وتحقيق الانسجام بين الأجيال[١].

وبعد أن استعرضنا تلك الجولة السريعة فى ميادين الحب داخل النفس البشرية، ننتقل إلى دائرة الكون الواسعة، لنرى كيف يشعر الكون كله بلذة الحب الإلهى، بما يتفق مع عظمة الله وجماله وجلاله.. ذلك الجمال السرمدى الخالد، الذى يجعل الكون كله، يسبح فى بحار العشق اللا متناهية.

وينعم بروعة تلك السباحة، كل من وجه محبته إلى الله الجدير بها حقاً.. أما من أحب نفسه، فهو نغمة شاذة فى أنشودة الكون القدسية، فيشعر بانقباض وانعزالية حيث تضيق عليه الدنيا رغم اتساعها.. فالعيب فينا وليس فى زماننا.

(١) صيقل الإسلام ص ٤٤٧.

المبحث الثاني
الكون كله يشعر بلذة الحب

كيف يجذب الجمال السرمدى الخالد عشق الكون كله؟

كما أوضحنا فى المقدمة: فإن رسائل النور كلها عبارة عن ترنيمة حب للمحبوب الباقي.. حيث تجول فى الكون المسبح بحمد الله وجلاله، لتسجل تلك التسبيحات التى تدل على الحب الحقيقى، والعشق الصادق.

ونحن لا نملك فى هذا المقام إلا التقاط مقتطفات تعبر عن المراد.. ومن تلك المقتطفات، ما بين فيه الإمام النورسى، كيف أن الكون كله يردد أنغام الحب الشجية، وتسبيحاته العذبة، نحو الجمال السرمدى الخالد، الذى يستحق الحب صدقاً وعدلاً.. فيقول إمامنا الجليل ﷺ[1]:

- إن أنواع الجمال الزاهر، وأشكال الحس الباهر، التى تتلألأ على وجوه الكائنات السريعة الأفول، ثم تتابع هذا الجمال وتجدده، بتجدد هذه الكائنات، واستمراره باستمرار تعاقبها.. إنما يظهر أنها ظل من ظلال تجليات جمال سرمدى، لا يحول ولا يزول. تماماً كما أن تلألأ الحباب على وجه الماء الرقراق، يمثل مرايا عاكسة، لأشعة شمس باقية.
- ثم إن ما يخفق به قلب الكون من حب جاد، وعشق صادق، يدل على معشوق دائم باق.. إذ كما لا يظهر شئ فى الثمرة، ما لم يوجد فى الشجرة نفسها، فكذلك العشق الإلهى العذب، الذى يستحوذ على قلب الإنسان. وهو ثمرة شجرة الكون، يبين أن عشقاً خالصاً، ومحبة صادقة

(١) الكلمات ص ٨١٧.

بأشكال شتى، مغروزة فى كيان الكون كله، وتتظاهر بأشكال شتى.. هذا الحب المالك قلب الكون، يفصح عن محبوب خالد سرمدى.

- ثم إن ما تمور به قلوب اليقظين الراشدين من أصفياء الناس، وما يشعرون به من انجذاب، وما يؤرقهم من وجد، وما يحسون به من جذبات، وما تتدفق به صدورهم من توق وحنين، إنما يدل على أن **حنايا ضلوع الكون**، تعانى ما يعانى الإنسان، وتكاد تتمزق من شدة انجذابها وعظيم جذباتها، التى تتظاهر بصور متنوعة.. وهذا الجذب لا ينشأ إلا من جاذب حقيقى، وجاذبية باقية أبدية.

- ثم إن أرق الناس طبعا، وألطفهم شعوراً، وأنورهم قلباً، وهم الأولياء الصالحون، من أهل الكشف والشهود، قد أعلنوا متفقين، على أنهم قد تبددت ظلمات نفوسهم، بإشراق أنوار تجليات ذى الجلال، وذاقوا حلاوة تعريف الجميل ذى الجلال، وتودده إليهم.

- وهكذا فالجمال الذى يشع من وجه الكون.. والعشق الذى يخفق به قلبه.. والانجذاب الذى يمتلئ به صدره.. والكشف والشهود الذى تبصره عينه.. والروعة والإبداع فى مجموع الكون كله.. يفتح نافذة لطيفة جداً، ونورانية ساطعة، أمام العقول والقلوب اليقظة، يتجلى منها ذلك الجميل ذو الجلال، الذى له الأسماء الحسنى، وذلك المحبوب الباقى، والمعبود الأزلى[١].

- إن الذى يحبب نفسه إلى مخلوقاته، ويحبهم ويرحمهم بإسباغ نعمه وألطافه عليهم، على هذه الصورة المطلقة، تقتضى حياته السرمدية عشقاً مطلقاً (لاهوتيا إذا جاز التعبير) ومحبة مقدسة مطلقة، ولذة منه، منزهة

---

(١) الكلمات ص ٨١٨.

سامية.. وأمثالها من الشئون الإلهية المقدسة، اللائقة بقدسيته، والمناسبة لوجوب وجوده.. فتلك الشئون الإلهية، بمثل هذه الفعالية التى لا حد لها، وبمثل هذه الخلاقية التى لا نهاية لها، تجدد العالم وتبدله، وتخضه خضاً[١].

الموجودات كلها تعمل وتسعى بشوق

فى مجال سباحته مع مخلوقات الكون العاشقة لربها، والآتية طوعاً ساجدة لتنفيذ أمر مولاها الجليل.. يبين لنا الإمام النورسى كيف يرفع الحب الإلهى فعالية الكون. فيقول: يا من لا يدرك مدى اللذة والسعادة فى السعى والعمل: اعلم أن الحق تبارك وتعالى، قد أدرج لكمال كرمه، جزاء الخدمة فى الخدمة نفسها، وأدمج ثواب العمل فى العمل نفسه.. ولأجل هذا، كانت الموجودات قاطبة، بما فيها الجمادات (من زاوية نظر معينة) تمتثل الأوامر الربانية بشوق كامل، وبنوع من اللذة، عند أدائها لوظائفها الخاصة بها، والتى يطلق عليها: **"الأوامر التكوينية"**، فكل شىء ابتداء من النحل والنمل والطير.. وانتهاء إلى الشمس والقمر، كل منها يسعى بلذة تامة فى أداء مهماتها. أى اللذة كامنة فى ثنايا وظائف الموجودات، حيث أنها تقوم بها على وجه من الإتقان التام، برغم أنها لا تعقل ما تفعل، ولا تدرك نتائج ما تعمل[٢].

فإن قلت: إن وجود اللذة فى الأحياء ممكن.. ولكن كيف يكون الشوق

(١) اللمعات ص ٥٨٥.

(٢) اللمعات ص ١٨٨ والمثنوى العربى النورى ص ٢٧٤.

واللذة موجودين فى الجمادات؟

فالجواب: إن الجمادات تطلب شرفاً ومقاماً وكمالاً وجمالاً وانتظاماً.. بل تبحث عن كل ذلك وتفتش عنه، لأجل إظهار الأسماء الإلهية المتجلية فيها، وليس لذاتها.. لذا فهى تتنور وتترقى وتعلو، أثناء امتثالها تلك الوظيفة الفطرية، حيث أنها تكون بمثابة مرايا عاكسة، لتجليات أسماء "نور الأنوار".

فمثلا: قطرة من الماء أو قطعة من الزجاج، رغم أنها تافهة وقاتمة فى ذاتها، إلا أنها إذا ما توجهت بقلبها الصافى إلى الشمس، تتحول إلى نوع من عرش لتلك الشمس، فتلقاك بوجه مضىء.

ومن المظاهر العامة على أن اللذة كامنة فى ثنايا الوظيفة نفسها:

- تأمل فى وظائف أعضائك وحواسك: تر أن كلا منها يجد لذائذ متنوعة أثناء قيامه بمهامه، فى سبيل بقاء الشخص أو النوع.. فالخدمة نفسها، والوظيفة عينها، تكون بمثابة ضرب من التلذذ والمتعة بالنسبة لها، بل يكون ترك الوظيفة والعمل عذاباً مؤلماً لذلك العضو.
- كمثال من عالم الطيور: تجد الديك مثلا يؤثر الدجاجات على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه إليهن، دون أن يأكل منها. ويُشاهد أنه يقوم بهذه المهمة، وهو فى غاية الشوق، وعز الافتخار، وذروة اللذة.. فهناك إذن لذة فى تلك الخدمة، أعظم من لذة الأكل نفسه.. وكذا الحال مع الدجاجة، الراعية لأفراخها، فهى تؤثرها على نفسها، إذ تدع نفسها جائعة فى سبيل إشباع الصغار، بل تضحى بنفسها فى سبيل الأفراخ، فتهاجم الكلب المُغير عليها، لأجل الحفاظ على الصغار.. ففى الخدمة إذن لذة تفوق كل شىء، حتى أنها تفوق مرارة الجوع، وترجح على ألم الموت..
- بالنسبة لعالم النبات: نجد النباتات والأشجار تمتثل أوامر فاطرها الجليل

بما يشعر أن فيه شوقاً ولذة، لأن ما تنشره من روائح طيبة، وما تتزين به من زينة فاخرة، تستهوى الأنظار، وما تقدمه من تضحيات وفداء، حتى الرمق الأخير، لأجل سنابلها وثمارها.. كل ذلك يعلن لأهل الفطنة: أن النباتات تجد لذة فائقة فى امتثالها الأوامر، بما يفوق أية لذة أخرى، حتى أنها تمحو نفسها وتهلكها، لأجل تلك اللذة.. ألا ترى شجرة جوز الهند، وشجرة التين، كيف تطعم ثمرتها لبناً خالصاً، تطلبه من خزينة الرحمة الإلهية بلسان حالها، وتتسلمه منها، وتظل هى لا تُطعم نفسها غير الطين.. وشجرة الرمان تسقى ثمرتها شراباً صافياً، وهبه لها ربها، وهى ترضى قانعة بشراب ماء عكر.. حتى أنك ترى ذلك فى الحبوب أيضاً، فهى تظهر شوقاً هائلاً للتسنبل، بمثل اشتياق السجين إلى رحب الحياة[1].

فسبحان من خلق هذا الاشتياق فى الكائنات، لتدفع عجلة الحياة فى إتقان وانتظام، بتدبير من الحكيم الخبير.. نعم! فإن جميع المصنوعات تُظهر ما يطلب منها من نتائج، تظهرها فى منتهى الجمال والكمال، بانقيادها للأوامر التكوينية، التى تعبر عنها بالعبادات المخصوصة، والتسبيحات الخصوصية والتحيات المعينة، وتحقق بذلك المقاصد الربانية المطلوبة منها، فيحصل من الافتخار والسرور، وغيرها من المعانى المقدسة والشئون المنزهة، التى نعجز عن التعبير عنها.. وهى سامية مقدسة، بحيث إذا اتحدت جميع عقول البشر فى عقل واحد، لعجز عن بلوغ كنهها والإحاطة بها[2].

---

(١) اللمعات ص ١٨٩ ، ١٩٠ والمثنوى ص ٢٧٥ ، ٢٧٦.

(٢) الكلمات ص ٧٤٥.

ومن هنا قال الأولياء المحققون الذين حظوا باسم الودود:

إن جوهر الكون كله هو المحبة، وأن حركة الموجودات بالمحبة.. فقوانين الانجذاب والجذب والجاذبية، التى تجرى فى الموجودات، إنما هى آتية من المحبة..

وقد قال أحدهم:

كل ذرات الوجود فى نشوة المحبة

الفلك نشوان والملك نشوان

النجوم والسماوات نشاوى

القمر والشمس نشوى والأرض نشوى

والعناصر والنباتات والأشجار نشاوى

بمعنى: أن كل شىء نشوان من شراب المحبة، بتجلى المحبة الإلهية، كل حسب استعداده.. فمن المعلوم أن كل قلب يحب من يحسن إليه، ويحب الكمال الحقيقى، ويعشق الجمال السامى، ويزيد حبه لمن يحب من يحبهم، ويشفق عليهم، ويحسن إليهم.

ترى: ما مدى العشق والمحبة التى تليق بمن له فى كل اسم من أسمائه ألف كنز وكنز من الإحسان والأنعام؟!.. ومن يُسعد كل من يحبهم.. ومن هو منبع ألوف أنواع الكمالات، ومن هو مبعث ألوف طبقات الجمال.. ومن هو مسمى ألف اسم واسم.. وهو الجميل ذو الجلال، والمحبوب ذو الكمال..

ألا يفهم من هذا مدى الأحقية فى نشوة الكون طراً بمحبته[1]؟

(١) الكلمات ص ٧٤٦ ، ٧٤٧.

كيف يجمع الحب بين الأرض والسماء؟

فى حديث عن المعراج النبوى، ومحاولة بيان بعض حكمته، وضح لنا الإمام النورسى كيف ترتبط الأرض بالملأ الأعلى، بأنوار الحب والجلال والكمال.

فقال ﷺ:

إن لله سبحانه وتعالى جمالاً وكمالاً مطلقين، بشهادة آثاره ومصنوعاته، وأن الجمال والكمال محبوبان لذاتيهما.. فما لك ذلك الجمال والكمال إذن له محبة بلا نهاية لجماله وكماله، وتلك المحبة تظهر بوجوه عدة، وأنماط كثيرة فى المصنوعات، فيولى سبحانه مصنوعاته حبه، لما يرى فيها من أثر جماله وكماله.

ولما كان أحب المصنوعات وأسماها لديه ذوو الحياة.. وأحب ذوى الحياة وأسماهم ذوو الشعور.. وأحب ذوى الشعور، باعتبار جامعية الاستعدادات، هو ضمن الإنسان.. فأحب إنسان إذن هو ذلك الفرد، الذى انكشفت استعداداته انكشافا تاما، فأظهر إظهاراً كاملاً، نماذج كمالاته سبحانه، المنتشرة فى المصنوعات، والمتجلية فيها.

وهكذا، فصانع الموجودات لأجل مشاهدة جميع أنواع تجلى المحبة المبثوثة، فى جميع الموجودات فى نقطة، فى مرآة.. ولأجل إظهار جميع أنواع جماله، بسر الأحدية، اصطفى من هو ثمرة منورة من شجرة الخلق، ومن قلبه فى حكم نواة قادرة على استيعاب حقائق تلك الشجرة الأساسية.. اصطفاه بمعراج –هو كخيط اتصال نورانى بين النواة والثمرة، أى من المبدأ الأول إلى المنتهى– مظهراً محبوبيه ذلك الفرد الفذ أمام الكائنات، فرقاه إلى حضوره، وشرفه برؤية جماله، وأكرمه بأمره، وأناط به وظيفة: جعل ما

عنده من حكمة قدسية تسرى إلى الآخرين[١].

فلأجل ما سبق يصح أن يقال:

إن الجميل ذا الجلال لمحبته جماله: يحب محمداً ﷺ الذى هو أكمل مرآة ذات شعور لذلك الجمال.

وأنه سبحانه لمحبته أسماءه: يحب محمداً ﷺ الذى هو أجلى مرآة تعكس تلك الأسماء الحسنى. ويحب من يتشبهون بمحمد ﷺ أيضاً، كل حسب درجته.

وأنه سبحانه لمحبته صنعته: يحب محمداً ﷺ الذى أعلن عن تلك الصنعة فى أرجاء الكون برمته، حتى جعله فى نشوة وشوق، يرن به سمع السماوات، ويثير به البر والبحر شوقاً إليه.. ويحب أيضاً من يتبعونه.

وأنه سبحانه لمحبته مصنوعاته: يحب محمداً ﷺ إذ هو أفضل الناس طراً، الذين هم أكمل ذوى الشعور، وأكمل ذوى الحياة، وأكمل مصنوعاته سبحانه.

وأنه سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته: يحب محمداً ﷺ إذ هو فى ذروة الأخلاق الحميدة، كما اتفق عليها الأولياء والأعداء.. ويحب كذلك من يتشبهون به فى الأخلاق، كل حسب درجته.

بمعنى أن محبة الله قد أحاطت بالكون، كما أحاطت به رحمته.. ولهذا فإن أعلى مقام فى الوجوه الخمسة المذكورة ضمن المحبوبين، الذين لا حصر لهم، هو مقام خص بمحمد ﷺ ولأجله منح اسم "حبيب الله"[٢].

---

(١) الكلمات ص ٦٨٥.

(٢) الكلمات ص ٣٩٣.

فمن الذى جعل السموات والأرض ترن بصدى "سبحان الله.. ما شاء الله.. الله أكبر" من أذكار الإعجاب والتسبيح والتكبير؟ ومن الذى هز الكائنات بنغمات القرآن الكريم، فانجذب البر والبحر إليهما، فى شوق عارم من الاستحسان والتقدير، فى تفكر وإعلان وتشهير، فى ذكر وتهليل؟..

من ذا يكون تلك الذات المباركة غير محمد الأمين ﷺ؟

فمثل هذا النبى الكريم ﷺ الذى يضاف إلى كفة حسناته فى الميزان، مثل ما قامت به أمته من حسنات.. والذى تضاف إلى كمالاته المعنوية، الصلوات التى تؤديها الأمة جميعاً.. والذى يُفاض عليه من الرحمة الإلهية ومحبتها، ما لا يحدهما حدود.. فضلاً عما يناله من ثمرات ما أداه من مهمة رسالته من ثواب معنوى عظيم.. نعم فمثل هذا النبى العظيم ﷺ لا ريب أن عروجه السماوات، وذهابه إلى الجنة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى العرش الأعظم، فكان قاب قوسين أو أدنى.. إنما هو عين الحق، وذات الحقيقة، ومحض الحكمة.

فالمعراج النبوى صورة وغلاف لخيط العلاقة النورانية، بين الأرض والسماء.. حيث فتح الرسول الكريم ﷺ ذلك الطريق ودرج فيه بولايته، وعاد برسالته، وترك الباب مفتوحاً، ليسلكه أولياء أمته، الذين يتبعونه سلوكاً بالروح والقلب، فيدرجوا فى تلك الجادة النورانية، تحت ظلال المعراج النبوى، ويعرجوا فيها إلى مقامات عالية، كل حسب استعداداته وقابلياته، التى تنتج عن مدى حبه لله ولرسوله[1]. وإنصاته إلى هذا الرسول إنصات شوق ورغبة وتبجيل واحترام، تجعله يقترب من رب العالمين حباً وطاعة وخشوعاً. وهكذا فمعرفة مرضيات الله سبحانه، تجعل هذه الدنيا مضيفاً

(١) الكلمات ص ٦٩١ ، ٦٩٣.

لمضيف جواد كريم، وتجعل الناس ضيوفه المكرمين، ومأموريه في الوقت نفسه.. وتضمن لهم مستقبلاً زاهياً كالجنة، وممتعاً ولذيذاً كالرحمة، وساطعاً باهراً كالسعادة الأبدية[١].

فإلى كل من تتشوق روحه إلى السماوات العلا والأنوار القدسية والجمال السرمدى.

وإلى كل من يريد أن يشعر تجاوبا حقيقيا مع النغمات التى يرددها الكون فى شوق ولذة.

وإلى كل من تتوق نفسه أن ترتفع عن بشريتها وتحلق بنورانيتها تشبها بمعراج النبى الحبيب.

إلى كل هؤلاء أقول: إن حب الله ورسوله هو الذى يحقق ذلك "لأن الله ربط بأنوار محبته بين قلوب عباده المؤمنين، وجمع بتلك الأنوار بين الأرض والسماء، ليستعلى بها الإنسان على جميع المخلوقات.

فالحب الإلهي: هو أسمى الغايات، وأرفع الدرجات وأسرع السبل للعروج إلى السماوات.

(١) الكلمات ص ٦٩٧ ، ٧٠٠.

المبحث الثالث

لماذا ينهزم العقل والقلب أمام دواعي الهوى؟

تأرجح الإنسان بين الهدى والهوى

يبين لنا الإمام النورسي –رحمه الله– أن الغالب على تدبير شئون الإنسان: إما العقل أو البصر.. وبتعبير آخر: إما الأفكار أو الأحاسيس المادية أو: إما الحق أو القوة. أو إما الحكمة أو الحكومة. أو إما الميول القلبية أو التمايلات العقلية. أو: إما الهوى أو الهدى[1].

وأن نوازع الإنسان وأحاسيسه المادية لا ترى العقبى: فتفضل درهماً من اللذة الحاضرة المعجلة، على رطل من اللذة الغائبة المؤجلة.. وهى تتحاشى صفعة حاضرة، أكثر من تحاشيها سنة من عذاب فى المستقبل. وعندما تهيج أحاسيس الإنسان، لا ترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذى يتحكم.. فيرجح حينئذ لذة حاضرة ضئيلة جداً، على ثواب عظيم فى العقبى، ويتجنب ضيقاً جزئياً حاضراً، أكثر من تجنبه عذاباً أليماً مؤجلا.

ولما كانت الدوافع النفسية لا ترى المستقبل، بل قد تنكره، وإن كان هناك حثاً لها من النفس وعوناً.. فإن القلب والعقل اللذين هما محل الإيمان، يسكتان، فيغلبان على أمرهما.. فلا يكون عندئذ ارتكاب الكبائر ناتجاً من عدم الإيمان، بل من غلبة الهوى، وسيطرة الوهم والحس المادى، وانهزام العقل والقلب، وغلبة كل أولئك عليهما، حيث ينهزم قلبه وتنهار روحه أمام

---

(١) صيقل الإسلام ص ٤٩.

طغيان شهواته[١].

ولقد وضحنا كثيراً كيف أن طريق الفساد والهوى سهلة جداً، لأنها تخريب وهدم.. لذا يسوق شيطان الإنس والجن الإنسان إليها بكل سهولة ويسر.. وإنه لمن المحير حقاً، أن ترى قسماً من الناس الضعفاء، يتبعون خطوات الشيطان، لتفضيلهم لذة زائلة -بمقدار جناح بعوضة[٢]- فى هذه الدنيا الفانية، على لذائذ ذلك النعيم الخالد.. فى حين يفوق نور أبدى بمقدار (جناح بعوضة، من ذلك العالم السرمدى) جميع اللذات والنعم، التى اكتسبها الإنسان طوال حياته.

وهكذا من أجل هذه الحكم والأسرار، كرر القرآن الكريم الترغيب والترهيب، ليزجر المؤمن، ويجنبه الذنوب والآثام، ويحثه على الخير.. ولقد جال فى ذهنى يوماً سؤال، حول هذا التكرار فى التوجيه والإرشاد القرآنى وهو: ألا تكون هذه التنبيهات المستمرة مدعاة لجرح شعور المؤمنين، فى ثباتهم وأصالتهم، وإظهارهم فى موقف لا يليق بكرامة الإنسان؟.. لأن تكرار الأمر الواحد على الموظف من آمره، يجعله فى موقف يظن كأنه متهم فى إخلاصه وولائه! بينما القرآن الكريم يكرر أوامره بإصرار، على المؤمنين المخلصين.

وحينما كان هذا السؤال يعصر ذهنى، كان معى جمع من الأصدقاء المخلصين، فكنت أذكرهم وأنبههم باستمرار، كى لا تغرهم دسائس شياطين الإنس، فلم أر امتعاضاً أو اعتراضاً منهم قط، ولم يقل لى أحد منهم: إنك تتهمنا فى إخلاصنا. ولكنى كنت أخاطب نفسى وأقول: أخشى أننى قد

---

(١) اللمعات ص ١١٨ ، صيقل الإسلام ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف: "لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة، ما شرب الكافر منها جرعة ماء".. حديث صحيح رواه الترمذى ٢٤٢٢ (تحفة).

أسخطتهم بتوجيهاتي المتكررة لهم، وكأني اتهمتهم في وفائهم وثباتهم. وبينما أنا في هذه الحالة، انكشفت لي الحقيقة: فعلمت أن أسلوب القرآن الحكيم في تكرار التنبيه، مطابق لمتقضى الحال، وضروري جداً، وليس فيه أية مبالغة ولا إسراف قط، ولا اتهام للمخاطبين، حاش لله، بل هو حكمة خالصة وبلاغة محضة.

وخلاصة تلك الحقيقة هي:

إن الفعل الجزئي القليل الذي يصدر عن الشياطين، يكون سبباً لحصول شرور كثيرة، لأنه تخريب وهدم.. لذا كان لابد لأولئك الذين يسلكون طريق الحق والهداية، أن يُجنبوا ويُنبهوا كثيراً، ويُمد لهم يد العون دائماً لكثرة حاجتهم إليها، وليأخذوا حذرهم. لهذا يقدم الله سبحانه وتعالى في ذلك التكرار عوناً وتأييداً لهم، بعدد ألف اسم من أسمائه الحسنى، ويمدهم بآلاف من أيادي الرحمن والشفقة، لإسنادهم وإمدادهم، فلا يقدح به كرامة المؤمن، بل يقيه ويحفظه، ولا يهون شأن الإنسان، بل يظهر ضخامة شر الشيطان[1].

ويرى الإمام النورسي: أن دور رسائل النور في هذا العصر، الذي طغت فيه أحاسيس الإنسان على عقله وفكره، هو الكشف لهذا السفيه عن ألمه في لذته نفسها، ومساعدته على التغلب على أحاسيسه تلك، بإظهار آلام جهنم وعذابها في الدنيا أيضاً، بالموازنات التي تعقدها.. فتنفر أشد الناس اتباعاً لهواهم وأكثرهم تعنتاً وعناداً، من الخوض في متعهم المحرمة، وسفاهتهم المشئومة، وتدفع بالعقلاء منهم إلى طرق باب التوبة والاستغفار[2].. ويتشتت الميل الناشئ من النفس الأمارة بالسوء والهوى،

(١) اللمعات ص ١١٩ ، ١٢٠.

(٢) صيقل الإسلام ص ٤٨٣ ، ٤٨٤.

وينسحب وينكمش، أمام ما يهيج عندهم، مما يحملونه من إيمان وعقيدة، ومشاعر نبيلة، فتحصل لهم حالة روحية، أشبه ما تكون بهجوم، يُشن من أطراف الوجدان وأعماقه على ميل الهوى.

إذ الذى يهاجم ذلك الميل ليس الوهم والفكر وحدهما، وإنما قوى معنوية من عقل وقلب ووجدان، تهاجم دفعة واحدة ذلك الهوى.

أجل إن الإيمان يقيم دائماً فى القلب والعقل حارساً معنوياً أميناً، لذا كلما صدرت ميول فاسدة، عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية، قال لها ذلك الحارس الرادع: محظور.. ممنوع.. فيطردها ويهزمها. إن أفعال الإنسان إنما تصدر عن تمايلات القلب والمشاعر، وهى تنبعث من شدة تحسس الروح وحاجتها، والروح إنما تهتز بنور الإيمان، فإن كان خيراً، فليفعله الإنسان باطمئنان، وإلا فليحاول الانسحاب.. وعندئذ لا تغلبه النوازع والأحاسيس المادية، التى لا ترى العقبى[1].

ضلالات النفس بالهوى

يقول الإمام النورسى ﷺ:

إن الحياة الإنسانية فى هذا العصر، ولاسيما الحياة الاجتماعية، قد اتخذت وضعاً مخيفاً، ولكن ذا جاذبية، وحالة أليمة، بطريقة تثير اللهفة والفضول، بحيث تجعل الإنسان وقلبه ولطائفه الرفيعة، تابعة لنفسه الأمارة بالسوء، حتى تحوم كالفراش حول نار تلك الفتنة وترديها فيها[2].

---

(١) صيقل الإسلام ص ٥٢٢ ، ٥٢٣.

(٢) الملاحق ص ١٤٣.

ويرى أن كل ما يجرى فى هذه الدنيا له وجهان:

وجه إلى الدنيا والنفس والهوى.. ووجه إلى الآخرة

فأما الوجه الدنيوى فأعظم الأمور وأثقلها وأثبتها، وهو فى نفس الأمر بدرجة من الصغر والخفة والزوال، بحيث لا يساوى ولا يوازى ولا يليق لأنه يُشوش له القلب بالتضجر وشدة التألم[١].

فطوبى لمن نور حركاته بالآداب الشرعية، ويا سعادة من وفقه الله لاتباع السنة فى أعماله ومعاملاته، حتى أورث عمره الفانى أثماراً باقية.. ويا خسارة من خذله الله باتباع الهوى، فاتخذ إلهه هواه، حتى صار عمره هواء وعمله هباء[٢].

إن فى الإنسان حبة، لو كان الإنسان ثمرة، لكانت تلك الحبة نواته، ألا وهى القلب.. وهذه النواة وهى حبة القلب -ماؤها الإسلام وضياؤها الإيمان- فإن اطمأنت تحت تراب العبودية والإخلاص، وسقيت بالإسلام، وانتبهت بالإيمان، أنبتت شجرة نورانية مثالية من عالم الأم، هى روح لعالمه الجسمانى.. وإن لم تُسق بقيت نواة يابسة منكمشة، لائقة للإحراق بالنار، إلى أن تتقلب إلى النور[٣].

والدليل على أن القلب ما خُلق للاشتغال بأمور الدنيا قصداً: أنه إذا تعلق بشيء، تعلق به بشدة، واهتم به اهتماماً عظيماً، ويتطلب فيه أبدية ودواماً، ويفنى فيه فناء تاماً. وإذا مد يده يمد يداً تطيق أن تقبض على الصخور العظيمة وترفعها، مع أن ما يأخذه بتلك اليد من الدنيا، إنما هو تينه أو تبنه

---

(١) المثنوى ص ١٩٣.

(٢) المثنوى ص ٤٨١.

(٣) المثنوى ص ٢٢٠.

أو ريشة أو شعرة أو هباء.

نعم القلب مرآة الصمد، فلا يقبل حجر الصنم الذى يعشقه الإنسان، بل ينكسر به، لأنه يرد ولا يرضى ما ليس له بحق(١).

فلا لذة للقلب حقيقة فيما لا دوام فيه: أنت تزول، وتزول دنياك ودنيا الناس.. وستنزع من الكائنات هذه الصورة، وسيخلع عليها أخرى. فلا تهتم بما يبقى لك أثراً فى الفانى، ويفنى عنك فى الباقى.. فمن فى قلبه حياة، إذا توجه إلى الكائنات يرى من عظائم الأمور، ما لا يطيق مقاييس عقله وزنها ويضيق ذهنه عن محاكمتها(٢).

فاعلم أن **النفس تديم الغفلة:** بربط الدنيا بالآخرة كأنها منتهاها، كلاً بل معكوستها.. فبتصور الآخرة –ولو مع الشك– تتخلص من دهشة فناء الدنيا وألم الزوال.. وبسبب الغفلة أو الشك، تريد الخلاص من كلفة العمل للآخرة وتنظر إلى الأسلاف الميتين، كأنهم أحياء غائبون، فلا تعتبر بالموت.. وكثيراً ما يثبت عروق مطالبها الدنيوية فى أرض الآخرة للتأبيد بدسيسة. إن تلك المطالب لها وجهان: وجه إلى الدنيا لاثبات له، بل هباء منثوراً، ووجه إلى الآخرة تتصل أساساته بأرضها فتدوم.. كالعلم مثلاً له وجه مظلم، ووجه مضىء.

فالنفس الشيطانة تريك الوجه المضىء من العالم، بأنه له فوائد ستظهر فى الآخرة، وإن لم تظهر فى الدنيا، وذلك لتبلعك الوجه المظلم منه. إذ

---

(١) المثنوى ص ٢٢٣.
(٢) المثنوى ص ٢٣٢ ، ٢٣٣.

النفس نعامة والشيطان سوفسطائي والهوى بيطاشي[١].

فيا أيها الغافل: إنك لما نسيت الله بالهوى، أنساك نفسك، فتغلغلت أنانيتك وخلطت الأمور خلطاً، أدى بك إلى الفسق، والضلال.. وبالفسق ينقلب النور في حق الفاسق ناراً، والظلمة ضياء..

ولذلك يطلب منا الإمام النورسي: مواصلة جهاد نفوسنا الأمارة بالسوء، وخاصة أننا لسنا أمام نفس أمارة واحدة، بل هناك نفس **أمارة ثانية**.. حيث يقول: رأيت في وقت ما -لدى عدد من الأولياء العظام- ممن نجوا من أوضار نفوسهم الأمارة بالسوء، شكايات منها، ومجاهدات نفسية متتالية.. فكنت أحار في الأمر كثيراً، ولكن بعد مدة طويلة، رأيت أن هناك نفساً أمارة معنوية، غير دسائس النفس الأمارة الحقيقية -هي أشد عصياناً من الأولى، وأكثر نفوراً من الطاعة، وأكثر إدامة للأخلاق الذميمة.. هي النفس الثانية، وهي مزيج من الهوس والمشاعر والطبائع، وهي موغلة في الأعصاب والعروق، وهي الحصن الأخير الذي تحتمي به النفس الأمارة، فتجعل المجاهدة تستمر إلى نهاية العمر.

ولما كانت حواس هذه النفس الأمارة الثانية عديمة الشعور، عمياء لا تبصر، فهي لا تفهم **أقوال العقل**، ولا تدرك **نصائح القلب**، ولا تعير لهما سمعاً، كي تنصلح وتدرك تقصيراتها.. لذا لا ترتدع عن السيئات، إلا بلطمات التأديب وصفعاتها وبالآلام.. وإما بالتضحية التامة للإنسان، حيث يضحي المرء بمشاعره وحواسه كلها، للهدف الذي يصبو إليه، فيترك أنانيته كلها كلية، بل كل ما يملكه، في سبيل تحقيق أهدافه السامية.

---

(١) المثنوى ص ٣٠١.. والتشبيه هنا مبنى على أسس معينة: فالنفس تغمر رأسها في الغفلة كالنعامة لئلا يصيبها الأجل، والسوفسطائي ينكر كل شيء كالشيطان، والبكتاشي كالهوى يغير معاني الأشياء، فيقول مثلاً: الصلاة ليست مفروضة، إذ قال الله "لا تقربوا الصلاة" ولا يتم الآية "وأنتم سكارى".

وفى هذا العصر العجيب، تتفق النفسان الأمارتان -الحقيقية والمجازية- معاً بتلقينات رهيبة، حتى تدفعا الإنسان ليدخل فى السيئات والآثام طوعاً، وبرغبة منه، تلك السيئات، التى ترتعد من شناعتها كل الكائنات[1].

فالملام على من اتبع الهوى.. والسلام على من اتبع الهدى.

ويوجه الإمام الجليل تلك النصيحة الغالية لتطهير النفوس من ضلالات الهوى التى تعمى عن رؤية الحق فيقول:

اعلم! **يا من ابتلى بحب هذه الحياة**، حتى حسبت أن العلة الغائية فى الحياة وبقائها، وأن كل ما أودعته القدرة الأزلية، فى جوهر الإنسانية وذوى الحياة، من الجهازات العجيبة، والتجهيزات الخارقة، إنما أعطاها الفاطر الحكيم لحفظ هذه الحياة السريعة الزوال، ولأجل البقاء.. كلا ثم كلا! إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهر وأبهر وأنور دلائل الحكمة والعناية والانتظام -بإجماع شهادة نظامات الكائنات- أعجب وأغرب وأنسب مثال العبثية والإسراف، وعدم الانتظام وعدم الحكمة.. بل يرجع إلى الحى من ثمرات الحياة وغاياتها، بمقدار درجة مالكية الحى للحياة، وتصرفه الحقيقى فيها.. أما سائر الثمرات والغايات، فترجع إلى المحيى ﷻ، بالمظهرية لتجليات أسمائه، وإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته فى جنته فى الحياة الأخروية.

فاعلم يا قلبى: أن لذائذ الدنيا وزينتها بدون معرفة خالقنا ومالكنا ومولانا ولو كانت جنة -فهى جهنم.. ومعرفته تغنى عن كل ما فى الدنيا، حتى عن الجنة أيضاً[2]..

---

(١) الملاحق ص ٢١٠.

(٢) المثنوى ص ١٩٣.

دور المدنية فى إثارة دوافع الهوى

لقد سُئل الإمام النورسى -ﷺ- فى مرات كثيرة عن سبب وصفه للمدنية الحديثة بأنها دنية وخبيثة، ومرفوضة فى نظر الشريعة لأن سيئاتها طغت على حسناتها.. وقد أجاب رحمه الله إجابات مقنعة شافية حيث أنها تشجع الهوى، ونوازع الإسراف والسفاهة والكسل، تحت حجة الحرية.. **وهو يرى أن هناك فرقاً كبيراً بين الحرية والإباحية**.. حيث الحرية الإيمانية ترتفع بعزة الإنسان وشهامته، وتجعله حراً حقاً بانتسابه إلى سلطان الكون.. أما الإباحية: فهى تهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوانية.

وننقل هنا مقتطفات من أقواله فى هذا المجال:

يقول رحمه الله: **إن المدنية الحديثة تأسست على خمسة أسس سلبية:**

- فنقطة استنادها هى: **القوة**. وهذه شأنها الاعتداء.
- وهدفها وقصدها: **المنفعة**. وهذه شأنها التزاحم.
- ودستورها فى الحياة: **الجدال والصراع**. وهذا شأنه التنازع.
- والرابطة التى تربط المجموعات البشرية هى: **العنصرية** والقومية السلبية، التى تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها التصادم.
- وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هى: تشجيع **هوى المنفعة** وإثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها.. وهذا الهوى شأنه: إسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية. وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً.. فمعظم هؤلاء المدنيين، لو انقلب باطنهم بظاهرهم، لوجد الخيال

تجاهه صور الذئاب والدببة والحيات والقردة والخنازير. ولأجل هذا، فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية، إلى أحضان الشقاء.. وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة.. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك.. علماً أن السعادة تكون سعادة حقاً، عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدنية هى لأقل القليل من الناس.. لأجل كل هذا لا يرضى القرآن الكريم بمدنية، لا تضمن سعادة الجميع، أولا تعم الغالبية العظمى[1].

أما لماذا حققت تلك المدنية الشقاء للبشرية؟

- لأنها بتحكم الهوى الطليق من عقاله، والدفع إلى الإسراف، وتهييج الشهوات، وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية، فى حكم المطالب والحاجات الضرورية.. فقد أصبح الإنسان العصرى –من حيث التقليد والإدمان– مفتقراً إلى عشرين حاجة بدلاً من أربع منها ضرورية. وبذلك فإن هذه المدنية الحاضرة تجعل الإنسان معوزاً دائماً، مما يدفعه إلى مزيد من الكسب الحرام، وإلى ارتكاب أنواع من الظلم والغبن.
- أنها بهجرها القانون الأساسى الذى سنه القرآن الكريم، القاضى بوجوب الزكاة، وتحريم الربا، والذى يُحقق بواسطتهما توقير العامة للخاصة، ويوفر بهما شفقة الخاصة على العامة.. فإنها بذلك أرغمت البرجوازيين على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم.. وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرد فى معاملتهم معهم. فدمرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها واطمئنانها، وجعلتها أثراً بعد عين.
- رغم ما أنجزته هذه المدنية الحاضرة من خوارق فى ساحة العلم، إلا أن

(١) صيقل الإسلام ص ٣٥٧ : ٣٥٩ - وكذلك ص ٣٩٥.

تلك الخوارق قادت قسماً من الناس -الذين لهم أهمية بالغة فى الحياة- إلى الكسل والسفاهة.. إذ أنها تزكى نار الأهواء النفسانية، وتثير كوامن النزعات الشهوانية، فتقعد الإنسان عن الكد والسعى، وتثنيه عن الشوق إلى العمل، وتسوقه بعدم القناعة، وعدم الاقتصاد، إلى السفاهة والإسراف والظلم وارتكاب المحرمات.. والأمثلة على ذلك كثيرة منها وسائل اللهو والإعلام بأنواعه، التى تسوق الناس إلى الاسترسال فى إثارة الهوى والاسترخاء والكسل، وضياع الوقت(١).

- إنها تحمل فتناً مدمرة لهذا العصر: إذ تستبيح لهوى الشباب الذى لا يرى العقبى، أعراض النساء والعذارى الفاتنات، وتدفعهم إلى الاختلاط الماجن البذىء، الذى يثير هوساتهم النفسانية، مما يجعل الشباب سائب الروح، ثرثار العقل، فاقداً لأذواق القلب نحو الحقائق الإيمانية السامية، خائر الشوق إليها.. كذلك فإن إثارة الشباب بالاهتمامات التافهة، يقتل قلوبهم معنى، بما يشبه تهيئة الجو الملائم للإلحاد.. فكما أن الهواء يؤثر تأثيراً مادياً سيئاً إن كان فاسداً.. فكذلك الجو المعنوى إذا ما فسد، يؤثر تأثيراً معنوياً سيئاً فى كل شخص حسب استعداده(٢).

فما هو موقف المسلمين من تلك المدنية الحديثة؟

الواجب علينا أن نأخذ بمحاسن تلك المدنية من التقدم العلمى، أما إذا أخذنا منهم ما يوافق الهوى والشهوات -كالأطفال- تاركين محاسنها التى تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون بذلك موضع سخرية، كالمخانيث أو كالمترجلات، لأننا أضعنا على أنفسنا مدنية الإسلام، التى هى

(١) الملاحق ص ٣٧٧ : ٣٧٩.

(٢) الكلمات ص ١٦٥ – الملاحق ص ٢٨١ – الملاحق ص ١١٩ : ١٢١.

فخر الأجيال[١].

فالمدنية التى تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها: هى التى ستتكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسساً إيجابية بناءة، مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية.

نعم **فالمدنية الإسلامية تقوم على خمسة أسس إيجابية**، تقابل الأسس الخمسة للمدنية الحديثة:

- إن نقطة استنادها هى: **الحق** بدلاً من القوة.. والحق من شأنه العدالة والتوازن.
- وهدفها: **الفضيلة** بدلاً من المنفعة.. والفضيلة من شأنها المحبة والتجاذب.
- والرابطة التى تربط بها المجموعات البشرية: هى **الرابطة الدينية والوطنية والمهنية**، بدلاً من العنصرية.. وهذه شأنها الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.
- ودستورها فى الحياة: **التعاون** بدل الصراع والجدال.. والتعاون من شأنه التساند والاتحاد.
- وتضع **الهدى** بدل **الهوى**: ليكون حاكماً على الخدمات التى تقدم للبشر.. وشأن الهدى: رفع الإنسانية إلى مراقى الكمالات.. فهى إذ تحد الهوى، وتحد من النزعات النفسانية، تطمئن الروح وتشوقها إلى المعالى[٢].

وهكذا فإن المدنية الإسلامية: هدفها الارتقاء بالعقل والقلب، فى مواجهة دواعى الهوى، الذى يؤدى إلى انحدار الأمم والشعوب، إلى مهاوى التهلكة.

---

(١) صيقل الإسلام ص ٤٦٨.

(٢) صيقل الإسلام ص ٣٥٩.

والله يريد للإنسان أن يرتقى بالإيمان -الذى ينير القلب ويشع على العقل- إلى أعلى عليين.

فكيف يحقق الإنسان ذلك؟

- يحققه بمساندة نفسه ضد تيارات الهوى العابثة بالدخول فى حصن الإيمان القوى.
- ويحققه باشتغال القلب بأمور الآخرة فيكون مراده دوماً تبعاً لمراد الحق.
- ويحققه بمعرفة الله، معرفة تغنى عن كل ما فى الدنيا من بهرجة زائلة.
- ويحققه بالوقوف من المدنية الحديثة موقفاً واعياً، فيأخذ محاسنها من التقدم العلمى، ويترك سيئاتها التى تتعارض مع قيم الإسلام، ومبادئه السامية.
- ويحققه قبل هذا وذلك بالحب الإلهى، الذى يحلق بالإنسان فى آفاق عاليه.. وهو ما سنوضحه -بعون الله- فى المبحث القادم.

المبحث الرابع
كيف يرتقي الإنسان بالحب الإلهي إلى أعلى عليين؟

جلاء الإنسانية في التغلب على الأحاسيس المادية

كما شرحنا سابقاً، فإن الغالب على تدبير شئون الإنسان.. إما الأفكار أو الأحاسيس المادية.. أو إما الحق أو القوة.. أو إما الميول القلبية أو التمايلات العقلية.. أو إما الهوى أو الهدى.. فإذا تغلبت تلك الأحاسيس المظلمة بالهوى والشهوة، وسخرتها لأمرها، فإنها تسبب مساوئ عديدة للإنسان، والأمة بأسرها، تخرجها من النور إلى الظلمات، وتنزل بها من أعلى عليين، إلى أسفل سافلين.

لأن من سيئات استبداد الأحاسيس المادية:

- غلبة الميول والرغبات والقوة، وميل التفوق، وانتشار الخصومات والاستبداد بكل صوره.
- تأسس المسالك والمذاهب غالباً على التعصب، وتضليل الآخرين، أو على السفسطة. والانحياز المانع عن كشف الحقيقة، وما يتبع ذلك من ظلم.
- تباعد الأخوة الإسلامية، وتفرق الانتساب الجنسي (الإنساني)، وانتفاء التعاون الفطري، مما يشتت الأمة، ويغرقها في طوفان المادية الرهيب.

أما إذا تغلبت الأفكار والعقل والحق والحكمة على الأحاسيس، فهذا معناه:

- تأسس المعتقدات والمسالك على البراهين القاطعة، وربط الحقائق بالحق الثابت الممد للكمالات كلها، مما يؤدي إلى عدم تمويه الأفكار وخداعها بإلباس الباطل لباس الحق.. وهكذا يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

- تحقيق الأخوة والترابط والتكافل الاجتماعى وسيادة الشورى كأساس فكرى فى معالجة جميع القضايا.

وهنا يسود قول الحق سبحانه وتعالى ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ (الإسراء: ٨١)، ويقسم الإمام النورسى: أنه ما ألقى النصارى وأمثالهم فى وديان الضلالة نافخاً فيهم الهوى، إلا عزل العقل، وطرد البرهان، وتقليد الرهبان.. وما جعل الإسلام يتجلى دوماً، وتتكشف حقائقه، وتتبسط بنسبة انبساط أفكار البشر، إلا تأسسه على الحقيقة، وتقلده البرهان، ومشاورته العقل، واعتلاؤه عرش الحقيقة، ومطابقته دساتير الحكمة المتسلسلة، من الأزل إلى الأبد ومحاكاته لها[١].

ولذلك فإن الإيمان يقيم دائماً فى القلب والعقل حارساً معنوياً أميناً، ضد النوازع والأحاسيس المادية: التى لا ترى العقبى، فتفضل درهماً من لذة عاجلة، على قنطار من لذات آجلة.. فكلما تمسك الإنسان بالإيمان، استطاع أن يقف ضد تيار الشهوات ولذائذ الحياة، التى تسود فى عصرنا الحاضر[٢].

وهكذا فإذا استضاء وجدان الإنسان وروحه بنور الإيمان: فإنه إذا وجد العاديات الخارجية فى الدنيا حوله، فإنه لا ينتابه الخوف والعجز والرعشة والقلق والوحشة واليتم واليأس، حيث يجد "**نقطة استناد**" يستند إليها فى مقابلة تلك العاديات، وهى معرفة الصانع الجليل فيستريح.

وإذا فتش عن استعداداته وآماله الممتدة إلى الأبد، يرى "**نقطة استمداد**" يستمد منها آماله، ويتشرب منها ماء الحياة، وهى معرفة السعادة الأبدية، النابعة من المحبة الإلهية.

---

(١) صيقل الإسلام ص ٤٩ : ٥٢.

(٢) صيقل الإسلام ص ٤٨٣.

وإذا رفع رأسه ونظر فى الكائنات، يستأنس بكل شىء، وتجتنى عيناه من كل زهرة أنساً وتحبباً.. ويرى فى حركات الأجرام حكمة خالقها، ويتنزه بسيرها، وينظر نظر العبرة والتفكر.. كأن الشمس تناديه: أيها الأخ لا تتوحش منى، فمرحباً بقدومك! نحن كلانا خادمان لذات واحد، مطيعان لأمره.. والقمر والنجوم والبحر و.. كل منها يناجيه بلسانه الخاص، وترمز إليه: بأهلاً وسهلاً، أما تعرفنا؟ كلنا مشغولون بخدمة مالكك، فلا تضجر ولا تتوحش، ولا تخف من تهديد البلايا بنعراتها، فإن لجام كل منها بيد خالقك الذى تحبه وتتشبث به.

وهكذا فهو يحس من أعماق روحه لذة عالية وسعادة عاجلة.. كلما أيقظ قلبه وحرك وجدانه نحو خالقه، استزاد سعادة، واستبشر بفتح أبواب جنات روحانية له، تزيده حباً لمالكه، وتعلقاً به.

وهذا بعكس الإنسان الذى يعيش مع أحاسيسه المادية حيث يشعر بالخوف والتوحش من كل ما حوله، ويحس فى أعماق وجدانه ألماً شديداً، فيضطر إلى التخلص منه وتهوينه، بالتغافل والاشتغال بسفاسف الأمور، ليخدع وجدانه، وتنام روحه، فلا يشعر بذلك الألم العميق، الذى يحرق أعماق وجدانه.. فبنسبة البعد عن الطريق الحق، يظهر تأثير ذلك الألم[١].

إن جوهر الإنسان جليل، وماهيته رفيعة.. وهذه الدنيا الضيقة لا تسع ولا تلائم نمو وتزاهر ما أودع فى جوهر البشر، من استعدادات غير محدودة، وميول ورغبات مخلوقة للأبد.. لذا يبعث إلى عالم آخر، كى تُربى وتكمل تلك الميول والاستعدادات[٢].. هذا إذا جاهد الإنسان أحاسيسه المادية،

---

(١) إشارات الإعجاز ص ٣٧ ، ٣٨.

(٢) صيقل الإسلام ص ؟؟.

وحقق جلاء الإنسانية فى أسمى صورها وأعظم معانيها، بحيث تظهر خواص جوهره النفيس، ومعدنه الأصيل، بما يتفق مع كمال روح الإنسان المكرم، وميوله المتشعبة في مواهبه، واستعداداته غير المحدودة[١].

كيف نعالج أعراض الحب الوهمية؟

يرى الإمام النورسى -ﷺ- أن مما يحجب الإنسان عن الله، ويبقيه فى الغفلة، انحصار نظره الجزئى على الجزء والجزئى، فيجوّز صدوره بالتصادف عن الأسباب الواهية. وأما إذا رفع رأسه، ومد نظره إلى الكل والكلى، فلن يجوّز صدور أدنى شيء من أعظم الأسباب.

- مثلاً: هذا الإنسان قد يسند رزقه الجزئى إلى بعض الأسباب.. ولكن إذا نظر إلى خلق الأرض وفقرها فى الشتاء، ثم امتلائها متبرجة متزينة بالأرزاق، التى طبختها القدرة فى مراجل الأشجار، وجفان الجنان، تيقن أنه لا يمكن أن يكون رازقه إلا من يرزق كل حى، بإحياء الأرض بعد موتها.
- ومثلاً: قد يسند ضياءه الجزئى المادى، ونوره المخصوص المعنوى، إلى بعض الأسباب الظاهرية، فيقول ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ (القصص: ٧٨) ولكن إذا نظر إلى اتصال ضيائه بنور النهار، واتصال نور قلبه بضياء منبع الأنوار، تيقن أنه لا يقتدر على إضائة قالبه، وتنوير قلبه حقيقة، إلا من يقلب الليل والنهار، بتحريك السيارات والأقمار.. والذى يضل من يشاء من الفجار، ويهدى من يشاء من الأبرار، بتنزيل للاعتبار والاختبار.

---

(١) المثنوى العربى النورى ص ٤٣١.

ويوجه الإمام النورسي نصيحته إلى الإنسان، الذي عنده استعداد للتوجه للرحمن، فيقول له بكل الحب والإخلاص:

أيها السعيد العاجز الخائف: إن الخوف والمحبة إذا توجها إلى الخلق، صار الخوف بلية أليمة، وصارت مصيبة منغصة.. إذ تخاف من لا يرحمك أو لا يسمع استرحامك.. وتحب من لا يعرفك، أو يحقرك لمحبتك، أو لا يرافقك، بل يفارقك على رغمك.. فاصرفهما من الدنيا وما فيها، وتوجه بهما إلى فاطرك الكريم، وخالقك الرحيم.. ليصير خوفك تذللاً لذيذاً، بالالتجاء إلى صدر الرحمة، كتلذذ الطفل بالتخوف، الذي يجبره إلى الانضمام إلى صدر أمه الشفيقة.. وتصير محبتك سعادة أبدية، لا تزول ولا تُزل، لا إثم ولا ألم[1].

ويسوق الإمام النورسي مزيداً من الأدلة، لتحرير الإنسان من مهاوى الحب الوهمية، والارتقاء به إلى حب الذات العلية، ليحقق السعادة الدنيوية والأخروية.. ونذكر تلك الأدلة فيما يلى:

الدليل الأول:

يا من يستمد من الأسباب: إنك كمن اكتفيت بقطرة سراب، عن بحر ماء الحياة.. فهل إذا رأيت قصراً عجيباً يُبنى من جواهر غريبة، لا يوجد بعضها إلا فى الصين، وبعضها إلا فى الأندلس، وبعضها إلا فى اليمن، وبعضها إلا فى سيبريا. إذا شاهدت أن البناء يتم على أحسن ما يكون، وتجلب له تلك الأحجار الكريمة من الشرق والغرب، والشمال والجنوب بأسرع وقت، وبسهولة تامة، وفى اليوم نفسه.. فهل يبقى لديك ريب فى أن بناء ذلك القصر، باسط هيمنته على الكرة الأرضية؟

(١) المثنوى ص ٣٥١.

وهكذا: كل كائن، بناء، وقصر إلهي، ولاسيما الإنسان.. فهو من أجمل تلك القصور ومن أعجبها، لأن قسماً من الأحجار الكريمة، لهذا القصر البديع، من عالم الأرواح، وقسم منها من عالم المثال واللوح المحفوظ، وقسم آخر من عالم الهواء، ومن عالم النور، ومن عالم العناصر. كما امتدت حاجاته إلى الأبد، وانتشرت آماله في أقطار السموات والأرض، وشرعت روابطه وعلاقاته في طبقات الدنيا والآخرة.

فيا هذا الإنسان الذي يحسب نفسه إنساناً: أنت قصر عجيب جداً، وعمارة غريبة جداً.. فما دامت ماهيتك هكذا، فلا يكون خالقك إذاً إلا ذلك الذي يتصرف في الدنيا والآخرة، بيسر التصرف في منزلين اثنين، ويتصرف في الأرض والسماء كتصرفه في صحيفتين، ويتصرف في الأزل والأبد، كأنهما الأمس والغد، فلا معبود يليق بك، ولا ملجأ لك، ولا منقذ إلا ذلك الذي يحكم على الأرض والسماء، ويملك أزمة الدنيا والعقبى.. وهو الجدير حقاً بالتوجه إليه بالمحبة.

الدليل الثاني:

هناك بعض الحمقى يتوجه بحبه إلى المرآة، إذا ما رأى الشمس فيها. وذلك لعدم معرفته الشمس نفسها، فيحافظ على المرآة بحرص شديد، لاستبقاء الشمس، ولكيلا تضيع! ولكن إذا تفطن أن الشمس لا تموت بموت المرآة، ولا تفنى بانكسارها، توجه بمحبته كلها إلى الشمس التي في السماء. وعندئذ يدرك أن الشمس التي تشاهد في المرآة، ليست تابعة للمرآة، ولا يتوقف بقاؤها ببقاء المرآة، بل إن بقاء حيوية المرآة وتلألأها، إنما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتها. فبقاء المرآة تابع لبقاء الشمس.

فيا أيها الإنسان! إن قلبك وهويتك وماهيتك مرآة، وما في فطرتك من

حب البقاء ليس لأجلها، بل لأجل ما فيها من تجل، لاسم الباقى ذى الجلال، الذى يتجلى فيها حسب استعداد كل إنسان. ولكن صرف وجه تلك المحبة إلى جهة أخرى نتيجة البلاهة. فما دام الأمر هكذا فقل: يا باقى أنت الباقى. فإذن أنت موجود وباقٍ، فليفعل الفناء بنا ما شاء، فلا نبالى بما نلاقى.

الدليل الثالث:

أيها الإنسان إن من غرائب ما أودع الفاطر الحكيم فى ماهيتك أنه: بينما لا تسعك الدنيا أحياناً فتقول: أف! أف! ضجراً كالمسجون المخنوق، وتبحث عن مكان أوسع منه، إذا بك تسعك خردلة من عمل، من خاطرة، من دقيقة، حتى تفنى فيها. فقلبك وفكرك اللذان لا تسعهما الدنيا الضخمة، تسعهما الذرة الصغيرة، فتجول بأشد أحاسيسك ومشاعرك، فى تلك الخاطرة الدقيقة الصغيرة.

وقد أودع البارئ سبحانه فى ماهيتك أجهزة ولطائف معنوية دقيقة، إذا ابتلع بعضها الدنيا فلا يشبع، ويضيق بعضها ذرعاً عن ذرة، ولا يتحمل شعيرة -كالعين التى لا تتحمل شعرة، والرأس الذى يتحمل أثقالاً هائلة. فتلك اللطيفة لا تتحمل ثقلاً كالشعرة الدقيقة، أى لا تتحمل حالة هينة جداً، نشأت من الضلالة، ونجمت من الغفلة، بل قد تنطفئ جذوتها وتموت.

فاحذر! وخفف الوطء، وخف من الغرق، فيغرق معك ألطف لطائفك التى تبتلع الدنيا فى أكلة، أو كلمة، أو لمعة، أو إشارة، أو بقلة، أو قبلة. فهناك أشياء صغيرة جداً، تتمكن فى جهة -أن تستوعب ما هو ضخم جداً. فانظر إن شئت كيف تغرق السماء بنجومها فى مرآة صغيرة، وكيف كتب الحق سبحانه فى خردلة حافظتك، أكثر ما فى صحيفة أعمالك، وأغلب ما فى صحائف أعمارك. فسبحانه من قادر قيوم!

الدليل الرابع:

يا عابد الدنيا! إن دنياك التى تتصورها واسعةً فسيحةً، ما هى إلا كـالقبر الضيق، ولكن جدرانه من مرآة تتعاكس فيها الصور، فتراه فسيحاً رحباً واسعاً مد البصر، فبينما منزلك هذا هو كالقبر، تراه كالمدينة الشاسعة، ذلك لأن الجدار الأيمن والأيسر لتلك الدنيا، واللذين يمثلان الماضى والمستقبل – رغم أنهما معدومان وغير موجودين- فإنهما كالمرآة تعكسان الصور فى بعضهما البعض الآخر، فتوسعان وتبسطان أجنحة زمان الحال الحاضرة، الذى هو قصير جداً وضيق جداً. فتختلط الحقيقة بالخيال، فترى الدنيا المعدومة موجودةً. فكما أن خطاً مستقيماً، وهو فى حقيقته رفيع جداً، إذا ما تحرك بسرعة، يظهر واسعاً كأنه سطح كبير.. كذلك دنياك أنت، هى فى حقيقتها ضيقة جداً، جدرانها قد توسعت ومدت، بغفلتك وتوهم خيالك، حتى إذا ما تحرك رأسك من جراء مصيبة أصابتك، تراه يصدم ذلك الجدار الذى كنت تتصوره بعيداً جداً. فيطير ما تحمله من خيال، ويطرد نومك. وعندئذ تجد دنياك الواسعة أضيق من القبر، وترى زمانك وعمرك يمضى أسرع من البرق، وتنظر إلى حياتك تراها تسيل أسرع من النهر.. فكيف تفنى فى حب هذا الضيق والزوال؟

فما دامت الحياة الدنيا، والعيش المادى، والحياة الحيوانية هكذا.. فانسل إذن من الحيوانية، ودع المادية، وادخل مدارج حياة القلب.. تجد ميدان حياة أرحب، وعالم نور أوسع، مما كنت تتوهمه من تلك الدنيا الواسعة.

وما مفتاح ذلك العالم الأرحب، إلا معرفة الله ومحبته، وانطلاق اللسان وتحريك القلب، وتشغيل الروح بما تفيده تلك الكلمة المقدسة "لا إله إلا

الله" من معانى وأسرار[١].

وفى النهاية يوجه إمامنا الجليل تلك النصيحة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فيقول:

اعلم أن لكل أحد علاقات بالمحبة والشفقة مع أقاربه، ثم مع أفراد عشيرته، ثم مع أفراد ملته، ثم مع أفراد نوعه، ثم مع أبناء جنسه، ثم مع أجزاء الكائنات، بحيث يمكن أن يتألم بمصائبهم، ويتلذذ بسعاداتهم، وإن لم يشعر، لاسيما مع من أحبه لكماله من جماهير الأنبياء والأولياء والأتقياء.. وكم من أحد، لاسيما "الأم" تفدى نفسها، وتزيل راحتها لعلاقة واحدة، ولمحبوب واحد، فماذا يكون حالها بما لا يحد من المحبوبات؟ فالغافل الحاكم على نفسه وعلى محبوباته: بحالة الغفلة واليتم وعدم التعهد، مبتلى بحمل آلام لا تعد منهم، مع آلام نفسه، وإن لم تشعر نفسه السكرانة بعذاب قلبه وروحه!. فلو ظفر هذا الغافل بجنة مثلاً، صارت لديه مثل الذبيبة المتلمعة فى الليل: لها لمعة نور، لكن استولت الظلمات الموحشة، على جميع مناظرها ومحبوباتها ومأنوساتها، مع أن نورها الذاتى قد يضرها بإراءتها لرقيبها.

وأما إذا طرد الغفلة، ورد الملك إلى مالكه الحقيقى، ينفتح لقلبه منفذ إلى أشعات شمس سرمدية، خط استوائها الأزل والأبد، ورأى أن كل هذه المحبات المنتشرة على هذه المحبوبات الكثيرة، كانت لهذا الواحد الذى يكفى عن الكل، وينسيك الكل.. ولا يكفى عنه الكل، بل ولا عن تجل من تجليات حبه.

فلو دخل هذا المؤمن الموقن جهنماً مثلاً.. أمكن له بإذن الله الظفر بجنة

---

(١) اللمعات ص ٢٠٥ : ٢٠٨.

روحانية بالتلذذ بالعلم: بأن كل أحبائه مصونون من الفراق الأبدى؛ ومنعمون بالسعادة الأبدية.

فيا أيها السعيد الغافل! اترك نفسك، ووهم مالكيتك، تظفر بسلامة جميع محبوباتك وسعاداتهم، بتسليمهم لمالكهم الكريم الرحيم(١).

إن الحب المحرم، أو العشق لغير وجه الحق، فيه من الآلام ما ينغص اللذة الجزئية فيه.. ومن تلك الآلام: الشعور بألم الغيرة والحسد، وألم الفراق عن المعشوق، وألم عدم مقابلة المحبة بالمثل.. وغيرها كثير من المنغصات التى تجعل تلك اللذة الجزئية، بحكم عسل مسموم(٢).

فالذوق الحقيقى واللذة التى لا يشوبها ألم، والفرح الذى لا يكدره حزن، والسعادة التامة فى الحياة، إنما هى فى حب الله، وفى نطاق حقائق هذا الحب ليس إلا(٣)..

ارتقاء الإنسانية بالمحبة الإلهية:

يرى الإمام النورسى -ﷺ- **أن المحبة التى هى ألذ شعور فى الإنسان وأطيبه وأسماه، إذا ما أعانها سر التوحيد، تجعل الإنسان الصغير، واسعاً سعة الكون**، وعظيماً وكبيراً كبره، حتى يجعله سلطانا محبوبا على المخلوقات كافة.. بينما المحبة نفسها، إذا ما ترددت إلى الشرك والكفر -والعياذ بالله- فإنها تتقلب إلى مصيبة عظيمة، بحيث تمزق لب الإنسان

---

(١) المثنوى ص ٤٤٨.

(٢) الشعاعات ص ٢٥٥.

(٣) الكلمات ص ١٦٦.

الضعيف كل حين وآن، بفراق أحبته غير المعدودين، فراقاً أبدياً، حيث يمحوهم الزوال والفناء دائماً.. بيد أن أنواع اللهو والغفلة، تحول دون استشعار الإنسان بهذا الألم، إذ تبطل شعوره وحسه مؤقتا وظاهراً[١].

ويرى أن فى النفس شيئاً عجيباً، وكنز آلات لا تعد، وموازين لا تحد، لدرك جلوات كنوز الأسماء الحسنى، إن تزكت تلك النفس بمعرفة الله ومحبته.. أما إن انحرفت وطغت، فإنها تتحول إلى كهف حيات وعقارب وحشرات.

فإذا أراد الإنسان بقاء نفسه وارتقاءها، فعليه تزكيتها، كما سلك عليه الصحابة.. أما إذا مالت نفسه إلى الهوى والهوس، فكان كمن يأكل أثمار الآخرة، بلا نضج فى الدنيا الفانية.

فقيمة الإنسان المؤمن: هى قيمة ما فيه من الصنعة العالية، والصبغة الغالية، ونقوش جلوات أسماء الله الحسنى.

وقيمة الإنسان الكافر أو الغافل: هى قيمة مادته الفانية الساقطة -إن نظر إلى نفسه- بالمعنى الاسمى وبحساب الأسباب، كما علمته الحكمة الفلسفية[٢].

ويخاطب الإمام النورسى كل من يوجه محبته إلى غير خالقه فيقول له: اعلم يا من يحب الموجودات الدنيوية، التى لا تصل إليها إلا بمقدار جرمك، ومساعدة قيدك، فتتألم بسائر الفراقات الأليمة، جزاء لصرفك المحبة فى غير محلها.. إنك إن أحببت الواحد الأحد، وتوجهت بحسابه وباسمه وبإذنه وبنظره وبحوله، تنزهت بالجميع معاً فى آن واحد، بلا فراق ولا ألم.. كمثل

(١) الشعاعات ص ١٩.

(٢) المثنوى ص ٣٧٨.

من ينتسب لسلطان، له مع كل جزء من مملكته ارتباط، يسمع ويبصر كل ما يجرى فى كل مكان، ومن كل مكين.. كأنه هو فى كلٍ وعند كلٍ، فيسمع ذلك الخادم بسمع سيده، ويبصر ببصره، بواسطة آلات المخابرة والمشاهدة، لذيذات النغمات وجميلات الصور، الموجودات فى محل سلطنة بعيدة[١].

وهكذا يتحقق بالمحبة الإلهية أسمى الغايات المعنوية.. ويؤكد الإمام النورسى تلك الحقيقة بمناقشة منطقية راقية مع من انحرف عن المحبة السامية فيقول له:

- إن كنت تحب نفسك، لأنها مخزن لذتك، ومركز وجودك، ومعدن نفعك، وأقرب إليك.. فقد التبس عليك ظل الظليل الزائل، بأصل الأصيل الكامل..
- وإن كنت تحب نفسك للذة زائلة، فلابد أن تحب من يفيدك لذائذ باقية بلا نهاية، ويفيض على جميع من تلتذ بسعاداتهم لذائذ تسعدهم.
- وإن كنت تحب نفسك لأنها مركز وجودك، فربك موجدك، وقيوم وجودك مع وجودات كل من لك علاقة بوجودهم.
- وإن كنت تحب نفسك لأنها معدن نفعك، فرازقك هو الذى بيده الخير كله، وإن كنت تحب نفسك أنها أقرب إليك، ففاطرها أقرب منها إليك، إذ تصل يده منها إلى ما لا تصل يدها ولا شعورها ولا حبها إلى ذلك الشىء الذى هو فى بحبوحة نفسها.

لذلك فلابد أن تجتمع جميع المحبات المنقسمة على جميع الموجودات، مع محبتك لنفسك، فتهديها إلى المحبوب الحقيقى، فتحلق فى أعلى

(١) المثنوى ص ٣٥٣ ، ٣٥٤.

السماوات[1].

فسبحان الله! وما أعظم فضله على الإنسان، حيث يشترى بثمن غالى منه، ما هو له وديعة عند الإنسان، ليحمله عنه، ويبقيه له، ويحميه مما يفسده.. مع أن الإنسان إن تملكه ولم يبعه، وقع فى بلاء عظيم، ولو تحمله بنفسه على ظهره لأنقض ظهره، ولو أمسكه بنفسه لزال سريعاً، وذهب مجاناً، وفنى مورثاً آثامه وأثقاله على مالكه الكاذب[2].

وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾** (الأحزاب: ٧٢).

لماذا كان الإنسان ظلوماً جهولاً؟

يجيب على ذلك الإمام النورسى بقوله:

لأن الله خلق الإنسان ليكون مؤديا مهمة مرآة قياسية صغيرة، لإدراك صفات خالقه الكاملة، وذلك بما يملك من صفات قاصرة ناقصة.. فكما أن الظلام كلما اشتد، سطع النور أكثر، فكأن هذا الظلام قام بمهمة إراءة المصابيح، فالإنسان أيضاً يؤدى مهمة إراءة كمالات صفات بارئه سبحانه بما لديه من صفات ناقصة مظلمة. ولذلك فقد وهب الله الإنسان مشاعر دقيقة جداً وكثيرة جداً.. قد لا تتكشف ضمن حياته، وإنما عندما يحفز أو يثار، تظهر تلك المشاعر بأشكال متنوعة وانفعالات مختلفة.. فمثلا: الحب والافتخار والرضى والانشراح، وما شابهها من المعانى، التى تتفجر لدى الإنسان فى ظروف خاصة، يؤدى الإنسان بها مهمة الإشارة إلى هذه الأنواع من الشئون الإلهية، بما يناسب قدسية الذات الإلهية، وغناه المطلق،

---

(١) المثنوى ص ٣٥٠ ، ٣٥١.

(٢) المثنوى ص ٢٢٨.

وبما يليق به سبحانه وتعالى[١].

فإذا توجهت مشاعر الإنسان إلى خالقه سبحانه وتعالى، فقد حقق الغرض من وجوده، وحقق لنفسه السعادة الأبدية.. إما إذا توجهت تلك المشاعر إلى هوى النفس، فقد جهل معرفة ربه، وظلم نفسه ظلماً شنيعاً، وسقط في أسفل سافلين.

ولكى يتم الله نعمته على محبيه، فقد جعل لهم دار الخلد ليخلدوا فيها سعداء مكرمين.. وتلك الدار الآخرة تمثل رحمة الله الواسعة على عباده المحبين له.

ويشرح الإمام النورسى نعمة الله على محبيه بخلق داء البقاء الأبدية.. فيقول: ما دام الجمال باقياً، والكمال سرمديا، والرحمة أبدية.. فلابد أن الإنسان الذى هو المرآة المشتاقة لذلك الجمال الباقى، والداعى العاشق لذلك الكمال السرمدى، والمحتاج الشاكر لتلك الرحمة الأبدية.. لابد أنه سيبعث إلى دار بقاء أبدية، ليخلد فيها دائماً، ولابد أنه سيذهب إلى الأبد، ليرافق الباقين الخالدين هناك، ويرافق ذلك الجمال الباقى، وذلك الكمال السرمدى، وتلك الرحمة الأبدية فى أبد الآباد.. بل يلزم ذلك قطعاً لأن: **الجمال الأبدى لا يرضى بمشتاق فان ومحب زائل.** إذ الجمال يطلب محبة تجاهه، مثلما يحب نفسه. بينما الزوال والفناء يحولان دون تلك المحبة، ويبدلانها إلى عداء.

فلو لم يرحل الإنسان إلى الأبد، ولم يبق هناك خالداً مخلداً، فسيجد فى فطرته عداء شديداً لما يحمل من سر مغروز فيه، وهو المحبة العميقة نحو الجمال السرمدى. مثلما بينا ذلك فى حاشية فى الكلمة العاشرة (رسالة

---

(١) اللمعات ص ٥٩٥ ، ٥٩٦.

الحشر): إن حسناء بارعة الجمال عندما طردت -ذات يوم- أحد عشاقها من مجلسها، انقلب عشقُ الجمال لدى العاشق المطرود قبحاً وكرهاً، حتى بدأ يسلّى نفسه بقوله: تباً لها ما أقبحها! فأنكر الجمال وسخط عليه.

نعم فكما أن الإنسان يعادى ما يجهله، فإنه يتحرى النقص والقصور، فيما تقصر يدُه عنه، ويعجز عن الاحتفاظ به ومسكه.. بل تراه يتحرى فيه عن القصور بشيء من عداء وحقد يضمره، بل يتخذ ما يشبه العداء له.

فما دام الكون يشهد بأن المحبوب الحقيقى، والجميل المطلق سبحانه يحبب نفسه إلى الإنسان، بجميع أسمائه الحسنى، ويطلب منه مقابل ذلك حباً عظيماً له، فلابد أنه سبحانه لا يدع هذا الإنسان، الذى هو محبوبه وحبيبه يسخط عليه، فلا يودع فى فطرته ما يثير عداءه نحوه -أى بعدم إحداث الآخرة- ولا يغرز فى فطرة هذا المخلوق المكرم الممتاز، المحبوب لدى الرب الرحيم، والمخلوق أصلاً للقيام بعبادته، ما هو مناف كلياً لفطرته من عداء خفى، ولا يمكن أن يحمل روحه، سخطاً عليه سبحانه قط؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يداوى جرحه الغائر، الناشئ من فراقه الأبدى، عن جمال مطلق يحبه ويقدره إلا بالعداء نحوه، أو السخط عليه، أو إنكاره؛ وكون الكفار أعداء الله نابع من هذه الزاوية.. لأجل هذا فسيجعل ذلك الجمال الأزلى حتماً هذا الإنسان الذى هو مرآة مشتاقة إليه، مبعوثاً إلى طريق أبد الآباد، ليرافق ذلك الجمال المطلق والبقاء والخلود، ولا ريب أنه سيجعله ينال حياة باقية، فى دار باقية خالدة.

وما دام الإنسان مشتاقاً فطرةً لجمال باق، خُلق محباً لذلك الجمال.. وأن الجمال الباقى لا يرضى بمشتاق زائل.. وأن الإنسان يسكن آلامه وأحزانه الناجمة عما لا تصل إليه يده أو يعجز عن الاحتفاظ به أو يجهله، بتحرى القصور فيه، بل يسكنها بعداء خفى نحوه، مسلياً نفسه بهذا العداء.. وما دام

الكون قد خُلق لأجل هذا الإنسان، والإنسان مخلوق للمعرفة الإلهية، ولمحبته سبحانه وتعالى.. وخالق الكون سرمدي بأسمائه الحسنى، وتجلياته باقية دائمة.. فلابد أن هذا الإنسان سيُبعث إلى دار البقاء والخلود، ولابد أن ينال حياة باقية دائمة.

هذا وأن الرسول الأكرم ﷺ وهو الإنسان الأكمل، والدليل الأعظم على الله، قد أظهر جميع ما بيناه من كمالات الإنسان وقيمته ومهمته ومثله، فأظهر تلك الكمالات في نفسه وفي دينه، بأوضح صورة وأكملها.. مما يدلنا على أن الكائنات مثلما خلقت من أجل الإنسان، فإن أجل مقصود من خلق الإنسان، وأفضل مصطفى منه، بل أروع وأسطع مرآة للأحد الصمد، إنما هو محمد عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام، بعدد حسنات أمته[1].

فمن يريد تحقيق الرقي الإنساني في أجلى صوره، فعليه الاقتداء بأفضل الخلق أجمعين، ليزداد حباً وقرباً من رب العالمين، وبالتالي يرتفع إلى أعلى عليين.

محبة الله هي أعلى درجات الأمن والسلام

يبين الإمام النورسي أن انحراف ينبوع المحبة والمعرفة عن وجهته التي خلق من أجلها. هو عين العذاب الأليم، في الدنيا قبل الآخرة.

فيقول ﷺ:

أيها الضالون الغافلون!

(١) اللمعات ص ٥٩٧ : ٥٩٩.

أن ما أودع فى فطرتكم من استعداد المحبة والمعرفة، ومن وسائط الشرك ووسائل العبادة، التى يلزم أن تبذل إلى ذات الله تبارك وتعالى، وينبغى أن تتوجه إلى صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، قد بذلتموها –بذلاً غير مشروع– لأنفسكم وللدنيا، فتعانون مستحقين عقابها، وذلك بسر القاعدة "**إن نتيجة محبة غير مشروعة مقاساة عذاب أليم بلا رحمة**". لأنكم وهبتم أنفسكم المحبة، التى تخص الله سبحانه وتعالى، فتعانون بلايا محبوبتكم، التى لا تعد، إذ لم تمنحوها راحتها الحقيقة.. وكذا لا تسلمون أمرها بالتوكل إلى المحبوب الحق، وهو الله القدير المطلق، فتقاسون الألم دائماً.. وكذا فقد أوليتم الدنيا المحبة، التى تعود إلى أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة المقدسة، ووزعتم آثار صنعته البديعة، وقسمتموها بين الأسباب المادية.. فتذوقون وبال عملكم؛ لأن قسماً من أحبائكم الكثيرين، يغادرونكم مُدبرين دون توديع، ومنهم من لا يعرفونكم أصلاً، وحتى إذا عرفوكم لا يحبونكم، وحتى إذا أحبوكم لا ينفعونكم، فتظلون فى عذاب مقيم، من أعذبة فراق لا حد له، ومن آلام زوال يائس من العودة.

فهذه هى حقيقة ما يدعيه أهل الضلالة، وماهية ما يدعون إليه من "سعادة الحياة" و "كمال الإنسان" و "محاسن الحضارة" و "لذة التحرر"!!

ألا ما أكثف حجاب السفاهة والسكر الذى يخدر الشعور والإحساس[1]!

فتوجه المحبة إلى الله تداوى جميع جروح الإنسان لأن الإيمان:

- يداوى ضعف الإنسان وعجزه، وفقره، واحتياجه بالتوكل على القدير الرحيم، مسلما أثقال الحياة، وأعباء الوجود، إلى قدرته سبحانه وإلى رحمته الواسعة، دون أن يحملها على كاهل الإنسان، بل يجعله مالكاً

(١) الكلمات ص ٧٥٨.

لزمام نفسه وحياته، واجداً له بذلك مقاماً مريحاً، ويعرفه بأنه ليس بحيوان ناطق، بل هو إنسان بحق، وضيف عزيز مكرم، عند الملك الرحمن.

- ويداوى أيضاً تلك الجروح الإنسانية الناشئة من فناء الدنيا، وزوال الأشياء، ومن حب الفانيات، يداويها بلطف وحنان بإظهاره الدنيا دار ضيافة الرحمن، ومبيناً أن ما فيها من الموجودات، هى مرايا الأسماء الحسنى، وموضحاً أن مصنوعاتها رسائل ربانية، تتجدد كل حين بإذن ربها، فينقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام.
- ويداوى أيضاً تلك الجروح التى يتركها الموت، الذى يتلقاه أهل الضلالة فراقاً عن الأحبة جميعاً، ببيانه أن الموت مقدمة الوصال واللقاء مع الأحباء، الذين رحلوا إلى عالم البرزخ، والذين هم الآن فى عالم البقاء، ويثبت أن ذلك الفراق هو عين اللقاء.
- ويزيل كذلك أعظم خوف للإنسان، بإثباته أن القبر باب مفتوح إلى عالم الرحمن الواسعة، وإلى دار السعادة الأبدية، وإلى رياض الجنان، وإلى بلاد النور للرحمن الرحيم، مبيناً أن سياحة البرزخ التى هى أشد ألماً وأشقى سياحة عند أهل الضلالة، هى أمتع سياحة وآنسها وأسرها، إذ ليس القبر فم ثعبان مرعب، بل هو باب إلى روضة من رياض الجنة.
- ويقول للمؤمن:

إن كانت إرادتك واختيارك جزئية، ففوض أمرك لإرادة مولاك الكلية.. وإن كان اقتدارك ضعيفاً، فاعتمد على قدرة القادر المطلق.. وإن كانت حياتك فانية وقصيرة، ففكر بالحياة الباقية الأبدية.. وإن كان عمرك قصيراً، فلا تحزن فإن لك عمراً مديداً.. وإن كان فكرك خافتاً، فادخل تحت نور شمس القرآن الكريم، وانظر بنور الإيمان، كى تمنحك كل آية

من الآيات القرآنية نوراً، كالنجوم المتلألئة الساطعة، بدلاً من ضوء فكرك الباهت.. وإن كانت لك آمال وآلام غير محدودة، فإن ثواباً لا نهاية له ورحمة لا حد لها ينتظرانك.. وإن كانت لك غايات ومقاصد لا تحد، فلا تقلق متفكراً بها، فهى لا تُحصر فى هذه الدنيا، بل مواضعها ديار أخرى، ومانحها جواد كريم واسع العطاء.

- ويخاطب الإنسان أيضاً ويقول:

- أيها الإنسان! أنت لستَ مالكاً لنفسك.. بل أنت مملوكٌ للقادر المطلق القدرة، والرحيم المطلق الرحمة، فلا ترهقْ نفسك بتحميلها مشقة حياتك، فإن الذى وهب الحياة هو الذى يديرها.

- ثم إن الدنيا ليست سائبة دون مالك، كى تقلق عليها وتكلف نفسك حمل أعبائها، وترهق فكرك فى أحوالها. ذلك لأن مالكها حكيم ومولاها عليم، وأنت لستَ إلا ضيفاً لديه، فلا تتدخل بفضول فى الأمور، ولا تخلطها من غير فهم.

- ثم إن الإنسان والحيوان ليسوا موجودات مهملة، بل موظفون مأمورون، تحت هيمنة حكيم رحيم، وتحت إشرافه. فلا تجرع روحك ألماً، بالتفكر فى مشاق أولئك وآلامهم، ولا تقدم رأفتك عليهم، بين يدى رحمة خالقهم الرحيم.

- ثم إن زمام أولئك الذين اتخذوا طور العداء معك، ابتداء من الميكروبات إلى الطاعون والطوفان والقحط والزلازل، بل زمام كل شىء، بيد ذلك الرحيم الكريم سبحانه، فهو حكيم لا يصدر منه عبث، وهو رحيم واسع الرحمة، فكل ما يعمله فيه أثر من لطف ورأفة.

- ويقول أيضاً:

إن هذا العالم مع أنه فان، فإنه يعبئ لوازم العالم الأبدي.. ومع أنه زائل ومؤقت، إلا أنه يؤتي ثمرات باقية، ويظهر تجليات رائعة من تجليات الأسماء الحسنى الخالدة.. ومع أن لذائذه قليلة وآلامه كثيرة، إلا أن لطائف الرحمن الرحيم وتكرمه وتفضله، هي بذاتها لذات حقيقية لا تزول، أما الآلام فهي الأخرى تولد لذات معنوية، من جهة الثواب الأخروي. فما دامت الدائرة المشروعة كافية، ليأخذ كل من الروح والقلب والنفس لذاتها ونشواتها جميعاً، فلا داعي إذن أن تلج في الدائرة غير المشروعة، لأن لذة واحدة من هذه الدائرة، قد يكون لها ألف ألم وألم، فضلاً عن أنها سبب الحرمان من لذة تكريم الرحمن الكريم، تلك اللذة الخالصة الذكية الدائمة الخالدة.

هكذا تبين مما سبق: بأن طريق الضلالة يردي الإنسان إلى أسفل سافلين، إلى حد تعجز أية مدنية كانت، وأية فلسفة كانت، عن إيجاد حل له، بل يعجز الرقي البشري، وما بلغه من مراتب العلم، عن إخراجه من تلك الظلمات السحيقة التي في الضلالة.

بينما الإيمان: يأخذ بيد الإنسان ويرفعه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ويبين له الدلائل القاطعة، ويبسط أمامه البراهين الدامغة على ذلك، فيردم تلك الأغوار العميقة، بمراتب رقي معنوي، وبأجهزة تكامل روحي.. وكذا ييسر له -بسهولة مطلقة- رحلته الطويلة المضنية العاصفة نحو الأبدية، ويهونها عليه؛ وذلك بإبرازه الوسائط والوسائل، التي يمكن أن يقطع بها مسافة ألف سنة، بل خمسين ألف سنة في يوم واحد[1].

(١) الكلمات ص ٧٦٠ ، ص ٧٦١.

ولذلك يكرر الإمام النورسى النصح قائلاً:

أيها المؤمن لا تبذل ما تملكه من قابلية غير محدودة للمحبة، إلى نفسك التى هى أمارة بالسوء، وهى قبيحة ناقصة، وشريرة مضرة لك، ولا تتخذها محبوبتك ومعشوقتك، ولا تجعل هواها معبودك، بل اجعل محبوبك من هو أهل لمحبة غير متناهية.. ذلك القادر على الإحسان إليك إحساناً لا نهاية له، والقادر على إسعادك سعادة لا منتهى لها، بل يسعدك كذلك بما يجزل من إحساناته، على جميع من ترتبط معهم بعلاقات، فهو الذى له الكمال المطلق والجمال المقدس، والمنزّه عن كل نقص وقصور، وزول وفناء.. فجماله لا حدود له، وجميع أسمائه جميلة وحسنى.

نعم إن فى كل اسم من أسمائه أنوار حُسنٍ وجمال لا نهاية لها؛ فالجنة بجميع لطائفها وجمالها ونعيمها، إنما هى تجل لإظهار جمال رحمته ورحمة جماله، وجميع الحسن والجمال والمحاسن، والكمالات المحبوبة والمحببة فى الكون كله، ما هى إلا إشارة إلى جماله، ودلالة على كماله سبحانه.

ويقول أيضاً:

أيها الإنسان! إن ينابيع المحبة المتفجرة فى أعماقك، والمتوجهة إلى الله سبحانه، والمتعلقة بأسمائه الحسنى، والمولهة بصفاته الجليلة: لا تجعلها مبتذلة بتشبثها بالموجودات الفانية، ولا تهدرها دون فائدة، على المخلوقات الزائلة؛ ذلك لأن الآثار والمخلوقات فانيتان، بينما الأسماء الحسنى البادية تجلياتها وجمالها، على تلك الآثار، وعلى تلك المصنوعات، باقية دائمة.. ففى كل اسم من الأسماء الحسنى، وفى كل صفة من الصفات المقدسة، آلاف من مراتب الإحسان والجمال، وآلاف من طبقات الكمال[١].

---

(١) الكلمات ص ٧٦١ ، ٧٦٢.

الخاتمة

ندعو الله فى خاتمة مطافنا فى هذا البحث، أن يتقبل منا أحسن أعمالنا، ويتجاوز عن تقصيرنا.. فنحن دائماً بشر يحكمنا العجز والقصور، ولولا فضل الله ورحمته، لضاع علينا الخير العميم.. فلله الحمد أولا وأخيرا. كما ندعو الله أن يكون بحثنا هذا قد استطاع أن يجيب على بعض التساؤلات التى تشغل بال الكثيرين.. فالحب لاشك قضية خطيرة، يجب أن تشغل بال الباحثين، وخاصة فى مجال الإصلاح العقائدى والاجتماعى. لأن الحب طاقة أودعها الله فى الإنسان.. هذه الطاقة تبحث عن منفذ لها دائماً، فإذا لم تجد المنفذ الملائم، فإنها تتحول إلى طاقة هوجاء مدمرة، تجلب الكثير من الانهيارات النفسية والاجتماعية.. أو على أضعف الاحتمالات، فإنها تتحول إلى طاقة سلبية، تحطم النفوس البشرية، حيث تظل تائهة حائرة، منعزلة عن مجتمعاتها، تتلاعب بها الظنون والأوهام، حيث لا تجد من يستحق الحب، بل تنكر وجود الحب أصلاً، أو تضع له مفاهيم خاطئة، تفرضها عليها عقولها المريضة.

فالحب الحقيقى: هو الذى يستمد ينابيعه وروافده من حب الله، فتفيض القلوب حباً على الإنسانية جمعاء، بل والكون بأسره..

وأروع ما يرمز لتلك الحقيقة الخالدة: هو تفسير الإمام النورسى -رضي الله عنه- لقول الحق ﷻ: **﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾** (الدخان:٢٩)، حيث يقول: إن هذه الآية تبين أن السماوات والأرض لا تبكيان على موت أهل الضلالة، لأنهم

ينكرون وظائفهما ويتهمونهما بالعبثية، ولا يدركون معانى ما يؤديانه من مهام، فيبخسون حقهما.. وذلك لأنهم لا يعرفون خالقهما، ولا دلالاتهما على صانعهما.. فيستهينون بهما، ويتخذون منهما موقف العداء والإهانة والاستخفاف. لذلك فلابد ألا تكتفى السماوات والأرض بعدم البكاء عليهم. بل تدعوان عليهم، بل وترتاحان لهلاكهم.

وتبين هذه الآية كذلك، بالمفهوم المخالف: أن السماوات والأرض تبكيان على موت أهل الإيمان، لأنهم يعرفون وظائفهما، ويقدرونهما حق قدرهما، ويصدقون حقائقهما الحقة، ويفهمون بالإيمان، ما تفيدان من معان.. حيث أنهم كلما تأملوا فيهما، قالوا بإعجاب: "ما أجمل خلقهما! وما أحسن ما تؤديان من وظائف!" فيمنحونهما ما يستحقان من القيمة والاحترام، حيث **يبثون حبهم بحبهم لله، أى لأجل الله..** باعتبارهما مرايا عاكسة لتجليات أسمائه الحسنى. ولهذا تهتز السماوات، وتحزن الأرض، لموت أهل الإيمان، وكأنهما تبكيان على زوالهم[1].

من منطلق هذا التفسير للإمام النورسى نقول:

إن الحب الحقيقى: هو حب الوجود كله لأنه من صنع الله، يشمل ذلك جميع الكائنات والناس والأطعمة والأهل والأقارب و.. حيث يشعر الإنسان بأمواج نورانية قدسية، تجمع بينه وبين مخلوقات الله فى بوتقة التوحيد، حيث الكل من خلق الحكيم الخبير.

وهذا الحب دائماً لا يبحث عن مقابل من الطرف الآخر، لأنه يجد

(١) الكلمات ص ٧٦٢ ، ٧٦٣.

المقابل من العلى القدير، فى أسرار قوله تعالى: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منك جزاء شكورا﴾** (الإنسان:٩).

أما الحب الوهمى: فهو الحب النابع من هوى النفس والمطامع والشهوات ولذلك فهو لا يستحق أن يطلق عليه حب أصلاً، بل يُقال شهوة أو مصلحة أو منفعة أو رغبة أو.. حيث ينقضى بانقضاء دوافعه وروافده.

لذلك فالحب الحقيقى يتسم بالسمو والإخلاص، والعطاء بلا مقابل، والثبات على المبدأ، والدوام، لأنه يستمد أنواره من الباقى الخالد.

أما الوهمى أو الخيال: فهو يتسم بالأنانية، وتفضيل المصلحة الذاتية وسرعة التقلب.. لأنه ينبع من هوى النفس الأمارة بالسوء.

فما أحوجنا جميعاً أن نسلم قلوبنا لله، ونخلصها من الشوائب والآفات، لتستقبل أنوار الحق بجلاء، وننعم بالحب الحقيقى الذى يسعدنا، ويسعد البشرية جمعاء، لأنه يشيع الأمن والسلام، والنبل والوفاء..

النتائج والتوصيات

يمكننا أن نستخلص من هذا البحث الشيق تلك النتائج السريعة:

إن الحب عاطفة إنسانية جياشة أودعها الله فى فطرة الإنسان، ليتوجه بها إلى خالقه، ويكون مرآة مجلوة لتجليات أسماء الله الحسنى، ويقوم بدوره فى الحياة كما أراد الله له: من حب الله ورسوله، وحب الأهل والأقارب، وحب الإنسانية بأسرها، بل حب الكون كله، والتفاعل مع الوجود فى مودة صادقة، وتعاطف ينبع من الإحساس بأن الخالق واحد للجميع.. وبالتالى فهناك موجات نورانية تسرى بين الإنسان والكائنات، تحقق التوحد المطلوب للكون.

ولهذا يقول الإمام النورسى -ﷺ- مخاطباً نفسه:

يا نفسى المحبة لنفسها، ويا رفيقى العاشق للدنيا!

اعلمى أن المحبة سبب وجود هذه الكائنات، والرابطة لأجزائها، وأنها نور الأكوان وحياتها.. ولما كان الإنسان أجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون، فقد أدرجت فى قلبه (الذى هو نواة لتلك الثمرة) محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها.. لذا لا يليق بمثل هذه المحبة غير المتناهية، إلا صاحب كمال غير متناه[1].

لماذا يقول الإمام النورسى ذلك؟

لأن المحبة المغروزة فى الإنسان، ما هى إلا محبة ذاتية متوجهة إلى ذات الله الجليلة سبحانه. إلا أن الإنسان يسىء استعمالها نتيجة الهوى

---

(١) الكلمات ص ٤١٠ : ٤١١.

ونوازع النفس فيوجهها إلى نفسه أو الدنيا، أو الأهل والأقارب، أو أى مخلوق آخر.. لذا فإن قلب هذا الإنسان المسكين يجرح دائماً، وتعصف به العواصف المدمرة، ولا ينجو من القلق والعذاب النفسي، مما يدفعه أحياناً أن يلقى بنفسه فى أحضان الغفلة والسكر.

ويرجع ذلك العذاب إلى أن كل شيء يحبه الإنسان فى الكون –غير الله– فهو ليس له قرار أو دوام: حيث إما يرحل عن الإنسان نظراً للأجل المحتوم، أو تتغير نوازع قلبه نحوه، فيعرضه للتشتت والإحساس بالضياع، لأن القلب يميل إلى العشق الأبدى دائماً.. وبالتالى فإن الأشياء التى يحبها الإنسان ويتشبث بها، تجرحه بالذهاب عنه، بل قد تقطع يده أحياناً، مما يعرض ذلك الإنسان لآلام رهيبة.

من أجل تلك الآلام، وحرصاً على نفس الإنسان من الضياع:

فإن الإمام النورسى يوصى بما يلى:

- **ينبغى على الإنسان أن يتوجه بالمحبة غير المتناهية المغروسة فى فطرته إلى صاحبها الحقيقى..** وهو الله جل شأنه، صاحب الكمال والجمال اللذين لا نهاية لهما.. ومتى سلم تلك المحبة إليه، يمكنه أن يحب الأشياء جميعاً باسمه، دون قلق، من حيث أنها مراياه.. وبذلك ينجو من ألم الفراق، لأن الله هو الباقى .. فإذا ذهبت مرآة لتجليات الحق، فهناك مرايا كثيرة غيرها تتجدد باستمرار.
- **على النفس أن تمزق ما فيها من "أنا": وتظهر "هو" بحيث يتخلص** الإنسان من أنانيته التى تدفعه إلى اللذة والمنفعة.. لأن تلك الأنانية تحجبه عن الحق، فتجعله يفضل لذة نفسانية بقدر ذرة، على لذة تكفى بديلاً عن الكائنات كلها، ولا يمكن أن تكون الكائنات برمتها، بديلاً عن

تجلى جزئى من تجليات محبته سبحانه.

- **إن الجمال الظاهر فى المخلوقات، والحسن البارز فيها، ليس هو ملك ذاتها..** وإنما هو إشارات إلى ذلك الجمال المقدس السرمدى.. وبالتالى فهو الأولى بالمحبة والعشق والشوق، وليس المخلوقات التى تغيب وتزول كل يوم.. لأن جزاء محبة غير مشروعة، وفى غير محلها، مصيبة لا رحمة فيها.. كذلك فمن الحكمة أن ينابيع المحبة المتفجرة فى أعماق الإنسان، والمتوجهة إلى الله سبحانه وتعالى، والمتعلقة بأسمائه الحسنى، والمولهة بصفاته الجليلة، يجب ألا يجعلها الإنسان مبتذلة بتشبثها بالموجودات الفانية، فيهدرها دون فائدة على المخلوقات الزائلة.
- **إن كل ما يجرى فى هذه الدنيا له وجهان: وجه إلى الدنيا والنفس والهوى، ووجه إلى الآخرة..** فأما الوجه الدنيوى فهو الذى يجذب النفوس أكثر بمتعة، وفى نفس الوقت يثقل عليها ترك شهواتها، ومع ذلك فهو فى نفس الوقت بدرجة من الصغر والخفة والزوال، بحيث لا يساوى ولا يليق أن يُشوش له القلب بالتضجر والتألم وشدة التأمل.. أما الوجه الأخروى فنظراً لأن متعه ليست عاجلة، وكذلك عذابه وعقابه، فكثيراً ما يثقل على النفوس نتيجة غفلتها التمسك به أو التشوق إليه.. ومع ذلك فهو فى نفس الوقت، بدرجة من العظمة والدوام، ما يستحق أن يتطلع القلب إليه ويتشبث به، لأن فيه اللذة الأبدية.
- **إن مما يحجب الإنسان عن الله، ويبقيه فى الغفلة، انحصار نظره الجزئى على الجزء والجزئى..** أما إذا رفع رأسه ومده نظره إلى الكل والكلى، فهو سيساعد نفسه على رفع حجب الغفلة.

ومما يعاونه على ذلك: التفكر فى الموت الذى هو فراقه عن كل محبوباته فى الدنيا وما فيها.. وتفكره فى السفر إلى أبد الآباد، فى أهوال

دهاشة، وتفكره فى عجزه وفقره الغير محدود، فى سفره الغير محصور، فى عمر معدود ومحدود.. وهكذا.

- **إن عشق البقاء لدى الإنسان، وحبه للحياة**، وافتتانه بالمحاسن، والشفقة على بنى جنسه، التى كثيراً ما تكون فى غير محلها.. كل **هذا يحول الدنيا إلى جهنم معنوية**، ويحول العقل إلى عضو للشقاء والتعذيب أما التوجه إلى الاغتراف من نور سيدنا محمد ﷺ الذى أنار به البشرية جمعاء، فإنه ينقذ دنيا كل شخص، من ظلمات العدم والانعدام والعبث، ويوجه القلوب إلى التعلق بالرب المعبود.
- **إن الحب المحرم، أو العشق لغير وجه الحق، فيه من الآلام ما ينغص اللذة الجزئية التى يشعر الإنسان بها**.. من تلك الآلام: الشعور بألم الغيرة والحسد، ألم الفراق عن المعشوق، ألم عدم مقابلة المحبة بالمثل.. وغيرها كثير من المنغصات، التى تجعل تلك اللذة الجزئية بحكم عسل مسموم.

فالذوق الحقيقى، واللذة التى لا يشوبها ألم، والفرح الذى لا يكدره حزن، والسعادة التامة فى الحياة، إنما هى فى حب الله، وفى نطاق هذا الحب ليس إلا..

وفى النهاية نسوق تلك النصيحة الغالية للإمام النورسى: **إن المحبة التى هى ألذ شعور فى الإنسان وأطيبه وأسماه، إذا ما أعانها سر التوحيد، يجعل الإنسان الصغير واسعاً سعة الكون**، وعظيماً وكبيراً كبره، حتى يجعله سلطاناً محبوباً على المخلوقات كافة.

بينما المحبة نفسها إذا ما تردت إلى الشرك والكفر –والعياذ بالله– فإنها تنقلب إلى مصيبة عظيمة، بحيث تمزق قلب الإنسان الضعيف كل حين وآن،

بفراق أحبته غير المعدودين فراقاً أبدياً، حيث يمحوهم الزوال والفناء دائماً.

فاللهم ارزقنا حبك، وحب من يحبك، وخاصة الحبيب المصطفى ﷺ حتى نحظى بأسرار الآية الكريمة:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران: ٣١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أكرم الخلق وسيد المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتبع سنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

المراجـــــع

يعتبر هذا البحث خاص بفكر العالم الإمام التقى الورع:

"بديع الزمان سعيد النورسى".. وتسمى مؤلفاته "كليات رسائل النور".

ترجمة وتحقيق: إحسان قاسم الصالحى.

نشر وتوزيع: "دار سوزلر" للنشر - فرع القاهرة (١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق - مدينة نصر - هاتف ٢٦٣٦٦٨٤).

وتشمل "كليات رسائل النور" الكتب التالية:

١- الكلمات.. ترجمة كتاب سوزلر SÖZLER عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٥٧-٤٣٢-٠٢١-٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٢/٤٧٤١..

الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٢- المكتوبات.. ترجمة كتاب المكتوبات MEKTUBAT عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٧٥-٤٠٢-٠٢٢-٥

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٢/٨٤١٤.

الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٣- اللمعات.. ترجمة كتاب اللمعات LEM'AALAR عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٧٧-٥٣٢٣-٠٥-٣

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/١٧٨٦.

الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٤- الشعاعات.. ترجمة كتاب شعاعلر SUÂLAR عن التركية
الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٧٧-٠٠-٥٦٨٠-٤
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/٨٣٢٣.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٥- إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز:
ترجمة كتاب ISÂRÂTÜL - ICAZ عن التركية
الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٧٧-٠٠-٦٣٦٦-٥
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/١١٤٤٠.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٦- المثنوى العربى النورى:
ترجمة كتاب Meshevi i Nuriye عن التركية
الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٧٧-٠٠-٧٩٧٢-٣
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤/١٠٥٢٢.
الطبعة الأولى (بمصر) ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٧- الملاحق فى فقه دعوة النور:
ترجمة كتاب LAHIKALAR عن التركية
الترقيم الدولى: I.S.B.N: ٩٧٧-٥٣٢٣-٠٩-٦
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥/٥٨٧٠.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٨- صيقل الإسلام فى فقه دعوة النور:
ترجمة وتحقيق:

١. Muhakemat
٢. قزل ايجاز
٣. تعليقات على برهان الكلنبوى
٤. Sunuhat
٥. Munazarat
٦. Divan-i HarbiÖrfi
٧. Hutbe-i Samiye
٨. Hutuvat-١ Sitte

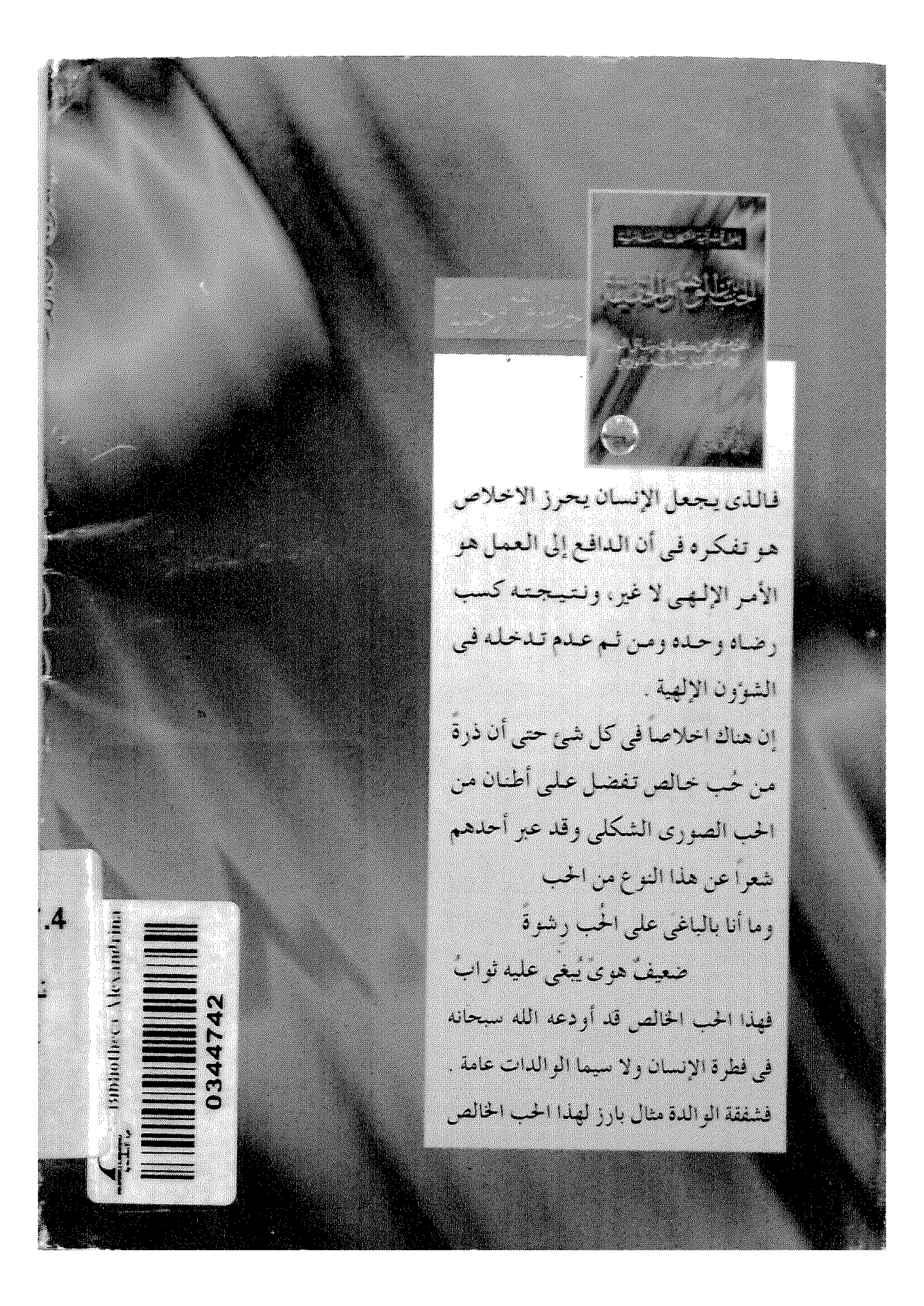
الترقيم الدولي: I.S.B.N: ٥٣٢٢-١١-X

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥/١١٣٥٤.

الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

الموضـــوع صفحة


فالذى يجعل الإنسان يحرز الاخلاص
هو تفكره فى أن الدافع إلى العمل هو
الأمر الإلهى لا غير، ونتيجته كسب
رضاه وحده ومن ثم عدم تدخله فى
الشؤون الإلهية .
إن هناك اخلاصاً فى كل شئ حتى أن ذرة
من حُب خالص تفضل على أطنان من
الحب الصورى الشكلى وقد عبر أحدهم
شعراً عن هذا النوع من الحب
وما أنا بالباغى على الحُب رشوةً
ضعيفٌ هوىً يُبغى عليه ثوابُ
فهذا الحب الخالص قد أودعه الله سبحانه
فى فطرة الإنسان ولا سيما الوالدات عامة .
فشفقة الوالدة مثال بارز لهذا الحب الخالص
Bibliotheca Alexandrina
0344742